ألبير قصيري

منزل الموت الأكيد

رواية

ترجمة: محمود قاسم

الكتاب: منزل الموت الأكيد (رواية)

الكاتب: ألبير قصيرى

ترجمة : محمود قاسم

الطبعة: 2017

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

قصيرى ، ألبير

منزل الموت الأكيد / ألبير قصيرى / ترجمة محمود قاسم

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

.. ص، .. سم.

الترقيم الدولى: 0 – 330 – 446– 977– 978

أ – العنوان رقم الإيداع : 7926

منزل الموت الأكيد





(1)

إنه الشتاء. شتاء مصر المرعب البائس. فى البداية أطل النهار خائفا من برد قارس. وازعجت الرياح المدينة الجديدة ومبانيها الخرسانية، التى بدت كغابة كثيفة، ثم انتشرت فوق الأحياء الشعبية ككائن متوحش. فهناك، لا يوجد أى مانع حقيقى يمكن أن يعترض هجمتها الشرسة. فتبدو وكأنها تستولى على الأكواخ، وتملأ الحوارى بصفيرها المدمر. كانت رياحا جليدية، معبقة ببرودة قاتلة. سرت عبر حواجز الأكواخ القذرة المهتزة، فطحنت الأطلال، واستدارت حول كتلة من الركام، ونثرت رائحة البؤس الوبائى فى كل مكان.

يطل منزل سى خليل عند طرف عطفة السبع بنات. إنه المالك المثير للتقزز، طقطق المنزل تحت سطوة الزوبعة وانتعى بأن تحول إلى انقاض. يمكن أن نقول أنه البشاعة مجسدة، المنزل لا يزال واقفا فى الهواء بفعل معجزة ربانية. يمكن فقط لابناء العاهرات، والذين غذوا ابصارهم عن مأساة حقيرة، أن يحموا كياناهم الضعيفة وراء هذه الجدران. نداءات مزعجة لبائع لبن، تمر فى العطفة كافة المركبات، وأيضا بعض الباعة الجائلين. الذين يمكن لأصواقم العالية أن تخترق ممرات الهواء الشتوية. وأن تشارك فى الكارثة. ورغم كل هذه الاحتياطات فإن هذا لم يمنع المأساة أن تكبر وأن تتسع. لأن المنزل يتصدع فى أركانه الصغيرة. بعيدا عن العوامل الخارجية التى تزيد من ميله. كأنه يخفى فى داخله جرثومة

انهياره، لا أحد يمكنه أن يحول دون سقوطه المنطقى والمثير للغثيان. أما بالنسبة لمستأجريه، فهم ناس مخضرمون فى كل شىء، يسكنون منذ أمد طويل فى هذه الأراضى الملوثة المخصصة لحياة الفقراء، لم تدع لهم مآساهم الغريبة ابدا الوقت لكى يفهموا الصراخ الذى ينطلق من ناحية لإخرى. ومن حيث هم موجودون. لا يمكن لأحد أن يسمعهم، ولذا فهم يرددون بحكمة أن البؤس الذى يعهدونه أفضل من بؤس يجهلونه وغريب عنهم.

فى البداية سُمع صرير الباب الثقيل. ودخل صبى فى الثانية عشرة من عمره وهو يطلق صفيره فى الفناء. لم يكن هذا السلوك البهيج فى مكان كئيب نتاجا لطبيعة واعية، لكنه أبسط الوسائل لمخادعة البرد، الذى لم يكن قد احتمى منه بأى ملابس. فى الواقع ان هذا الطفل البائس كان عاريا بشكل مثير فى هذا اليوم الشديد البرودة. ما ان دخل الفناء، حتى شرع فى الحجل. وبدأ يرتعد بطريقة غريبة. وكأنه يحاول أن يعود إلى بيته. كلفته كل هذه الحركات الرياضية الغريبة مجهودا خارقا. كان له وجه صغير مبثور، مائل للشحوب تقريبا، تشع فيه عينان متفحصتان، تتحركان بغرابة. خصلة رقيقة من الشعر ترتعد فى قمة رأسه المقصوصة الشعر. وقد تأرجح قضيبه بين ساقيه بشكل يثير الرثاء يبدو صغيرا وأسود. وأخيرا وبعد دقيقة توقف وهو يلهث، عقد ذراعيه بقوة على صدره، ونظر حوله فى تحد.

كان منظر الحوش يثير خوف البشر الأكثر بذاءة، والذين يمثلون النوع البشرى. على الأقل فهو يمكن أن يكون مبنى أثريا مشهورا، يبدو أشبه بأجواء المقابر القديمة. لا يستطيع أحد أن يدخله دون أن يتملكه الرعب. إنه مكان يحلم به المتخفيون. الآن وقد وقف الطفل ساكنا. سرعان ما اكتشف، بقلق، الحالة البشعة لهذا الحوش المتهدم، لم يكن المكان غريبا بالنسبة له. فقد جاء إليه من قبل. ولكن فى كل مرة يأتى، تنتابه مخاوف وهمية حول الشرف الذائع الصيت لهذا المنزل. هذا الصيت الذى انتشر حتى أغوار الاحياء الشعبية وحتى مشارف الصحراء. فى الحقيقة فان بين "سى خليل" كان يستخدم كخيال مآته للأمهات المغمومات، عندما يريدن تخويف الابناء الأشقياء. يُحكى حوله أشياء مرعبة ليس لها مثيل. يقال على سبيل المثال، أن عمره ألف عام وان صاحبه القديم كان غولا. والكثير من الأساطير الأخرى المخيفة والغريبة.

وللحظة، نسى الطفل هذا الحوش المزعج، وفكر فى مغامرته البذيئة، وهو يرتعد بكل جسده. ورغم اتساع آلامه، فلم يبك. فقد كان طفلا شجاعا اعتاد على المحن، فهو يسكن مع أسرته فى كشك فوق الانقاض. غير بعيد عن الجبل. لقد كلفته امرأة من الجيان بمهمة عاجلة، من أجل عبد العال، العربجى. كى يأتى إليها. عليه أن يعبر الأزقة الضيقة المليئة بالاخطار. دون أن يخشى شيئا. فاجتاز كل هذا الطريق المرعب وامتلأت رأسه بالأفكار اللذيذة، وهو يقبض فى يده على قطعة من مليمين. اعطتها له المرأة مقابل هذه المهمة. جعلته هذه القطعة ينسى البرد والنقرس والعقارب.

بدأت معاناته، فقط، عند طرف عطفة السبع بنات. فقد اعترضته مجموعة من الصبية، اصابهم البرد بحالة عدوانية بينة، وقفوا على أهبة التحفز. استوقفوه عند الممر. إنهم مجموعات الصبية الذين تدفعهم الصدف المشئومة إلى الأحياء الداخلية غير المأهولة بالسكان. وعندما رأوا هذا الطفل الشاحب القادم من الانقاض، فكروا لتوهم فى أساليب وحشية لمواجهته. وبقفزة واحدة ألقوا بأنفسهم فوقه. ودون أى مقدمات، تحركوا بنفس الطريقة المرعبة، فقاموا بنزع ملابسة كاملة. من على جسده الشاحب اللحم، لم تستغرق هذه العملية سوى بضع ثوان. ولم يكن للطفل من ملابس سوى جلبابه القذر الذى تركه للمغتصبين دون أية مقاومة. بدا مستسلما لهم. كامل الاستسلام.

رفع الطفل رأسه، وهو يكشف عن عريه المؤلم. ونادى بصوت جعلته هشة البرد كأنه أشبه بالتوسل:

– يا عم عبد العال!

ثم عاد ينفث بشكل متلاحق ومجنون.

وفى أعلى المنزل كانت الريح تجوس فى احشائه، تصدر منه طقطقات مكتومة، وأنين تحت وطأة الرياح التى غزته فى كل أنحائه وغمرته أشبه بموج البحر. ولوحظ أن الفئران القارضة قد هربت بينما انتفخت الجدران المتهدمة. سمع الطفل، فى أعماق توتره ثورة هذا العذاب، دون أن يشك فى التهديدات الملموسة التى تتمثل فيها. وأحس

كأنه مسا أصابه من غموض آخر. بحث حوله عن آثار الغول. وانتظر أن يراه يظهر. وهو يحس أنه يترنح من المعاناة. وبدا له أن ظهور الغول شيء ضمنى فى طى الأحداث. لم يأخذ حذره. أحس أنه يحمل كل آلام العالم. وأنه ليس به أى شيء غير طبيعى. وأن هذا الألم جزء من حياته الخاصة. حياته كطفل بائس، وكشهيد للارادة الاجرامية للناس. انساب من عينيه مخاط دهنى لامع واستنشق أنفاسا عديدة. وراح ينادى مرة أخرى وبسرعة:

– ياعم عبد العال! ياعم عبد العال!

وعلى التو، اجابه صوت جهورى، من الدور الأول للمنزل عبر بقايا مشربية قديمة. إنه صوت رجل اصابه غيظ شديد:

– ماذا تريد يا ابن القرعاء؟

– أرسلتنى الست نعيمة لأخبرك أنها ستعزل اليوم. تعال بالعربة. فهى تريدك حالا.

صاح الرجل بحدة قبل أن يظهر:

– ياابن المومس! رح للست نعيمة "بتاعتك" وأخبرها أن تذهب إلى الشيطان.

رد الطفل وقد اغتاظ لهذا الرفض القبيح وقد اصطكت أسنانه:

– يلعن أبوك.

سمع الرجل الشتمة. بدون شك لأنه ظل صامتا. ولكن يبدو أنه تراجع، قال بصوت أجش:

– ياولد! قل لها أننى قادم.

استعد الطفل للرحيل بعد أن أنجز مهمته. عندما تنبه لصوت شجار كالعادة. إنه عبد العال الحوذى الذى كان يتحدث مع زوجته. دار الحديث سهلا، وبعد قليل سمع صراخ المرأة المتوحش، وهى تتوسل بلا جدوى لبعلها. سمع الطفل ذلك، وقد أطرق أذنه فى الهواء، بصمت ومهابة، وفجأة عبر بخوف مفاجىء الصقه فى مكانه، وقد زمت حنجرته. تألم بهذا البرد البشع، لم ينتبه حتى الآن للأمور الجسيمة التى حدثت للمبنى المشروخ فى هذا المنزل الملعون. الآن فقط، أخذ الأمر فى الحسبان. فتح عينيه باتساعهما. وخنقته الدهشة. نظر كأنه منوم مغناطيسيا، إلى حالة المنول الغريبة. وبدا الخوف فى جفونه. وانعكست عليه رؤية كارثة وشيكة.. ورأى فوق رأسه، كتل أخشاب المشربية القديمة، التى ترزح تحت ثقلها المهشم. من ناحية أخرى. بدا هيكل البيت كأنه فريسة لجاذبية الأرض. معلقا فى الهواء، صانعا بينه وبين المنزل شرخا ضخما بطول الحائط. يبدو أشبه بثعبان يتلوى. ثبت الطفل عينيه، مقهورا، نحو الشرخ القذر الذى بدا كأنه يتسع ثانية بثانية. كأنه حلم ضخم. ثم تشمم الخطر الذى يتملكه فى كل جسده العارى. وتراجع خطوة. وهو يوارى "حماته" بيديه:

– يانهار أسود! الحقينى، يامه....

وعلى صرخة الطفل، ظهر عجوز نحيف مقوس الظهر، يرتدى أسمالا بالية على عتبة الباب. كان ذا لحية بيضاء، ذات شعر لا مثيل له وكانت عيناه مليئتين بالدمع وحمراء، أعور مصاب بالتراكوما. تغطى رأسه وكتفيه طرحة امرأة... قال وهو يتصفح وجه الطفل بعينيه المريضتين:

– ماذا بك، ياصغيرى؟

تمتم الطفل، الذى منعه ظهور العجوز المفاجىء من الكلام:

– منزلك يتهدم يابا.

ظل العجوز ساكنا للحظة. حاول أن يفهم الأمر. عبر وجهه عن مظهر طيب كان يفرط بين أصابعه النحيفة، مسبحة من الخشب الأسود. وانتهى بأن سأل:

– ماذا تقول يا صغير؟

أجاب الطفل: أقول أن منزلك ينهار. ألا ترى يا أبى؟

نظر العجوز نحو الاتجاه الذى يشير إليه الطفل. وبدا له انه من المستحيل أن يتقصى اتلافات جديدة بين كل الاطلال المفحمة. لم يسمح له ارتباكه بأن يلحظ أن الخراب انتشر بلا حدود. لقد اعتاد عليه منذ أمد طويل. تصور أن الطفل يسخر منه، ويشهر بالمنزل بلا حدود. ثم أصابه عرى الطفل فى هذا الجو البالغ البرودة بالحيرة:

– هل هذه طريقة لزيارة الناس ياولد؟ البس ملابسك، ولكن جادا.

قال الطفل: يبدو أنك أعمى.

قال العجوز: ومع ذلك أراك جيدا. لماذا أنت عريان؟

– لقد سرق أقزام حيك جلبابى.

قال العجوز: مسكين ياصغير. ليلعنهم الله!

قال الطفل: لا. الها لعبة. كانوا فقط يلهون.

وبيده المجعدة. المرتعدة، دعك العجوز عينيه المريضتين. فهذا الطفل العارى، يبدو، رغم كل غضب الرجل، روحا ساذجة ورقيقة. ويبدو أيضا كأنه شيء وهمى.

قال أخيرا: أنت ولد غريب. لم أر قط طفلا مثلك. فأنت فريد فى طرازك.

نفخ الطفل فى يديه كى يدفئهما. وبدأ فى الفقز كقرد. فالبرد لم يترك له الفرصة، نظر العجوز بحزن إلى الطفل العارى وهو يرتعد من البرد وأحس نحوه بشفقة عميقة:

– هل أنت بردان؟

قال الطفل: أنا بردان. ولكن مترلك يخيفنى.

قال العجوز: لاتخف. انه هكذا منذ وقت طويل.

قال الطفل: ومع ذلك سأذهب. ياله من يوم أسود!

ثم هرب فى البرد القارس الذى كان ينتظره فى كل مكان.

بقى العجوز "كاوه" وحده مستندا على بابه. وراح يفكر. فالجو كئيب وممطر.

رأى السماء عبر عروق السقف. السماء أشبه بالخرقة القذرة. شاهدة دوما على مأساة البشر. فالشمس لم تطلع بعد. انه يوم ملئ بالمعاناة والاخطار. ليس للبرد فيه حدود. إنه ضخم مثل العالم، قام العجوز كاوه وعاد إلى مسكنه، ثم خرج بعد قليل. وهو يمسك فى يده مجمرة من الطوب اللبن، فيها بعض قصاصات الأوراق. ثم مد يده إلى النيران الضعيفة التى ينبعث منها دخان خانق سرت الحرارة فى يده، توقفت فى قبضتها أما باقى جسده فقد ظل فريسة للظل والبرد.

صرصرت الريح فى العطفة. وسمع هبوبها القوى كأنها تنبح داخل الهياكل القذرة للكوخ. أحس العجوز كاوه بالبرد يسرى فيه. إنه ألم بلا بداية ولا نهاية. أصابه برد كأن نصل سكين غاص فى اللحم الحى. قام العجوز كاوه. وظل واقفا للحظة أمام فتحة الباب وكأنه يريد أن يصطاد هذا البرد الذى يلمسه فى جسده. ثم انحنى من جديد ومد يده إلى اللهب المنبعث من المجمرة.

وبعد قليل، بدا له أن شخصا يتحرك فى الحوش. استدار نحو الركن الأيسر، ورأى خيالا باهتا، إنه شحاتة النجار. بدا الرجل منهمكا فى عمله الأزلى. لم تتحرك عيناه الشاحبتان فى محجريهما، يتطلع بهما وهما مثبتتان دوما على عمله. ابراهيم شحاته النجار غارق فى حالة سكوت وتأمل. يشغل زوجته واطفاله الأربعة مسكنا كريها فى أغوار المترل المظلم.. انها اسرة تتضور جوعا. تعيش فى مأساة ترجع للعصور الوسطى. ويموتون من الضنك. لايسمعون ابدا يتصايحون ولايتناقشون. عدا المرأة. التى ذاعت شهرتها بين الجيران. تغامر أحيانا بالخوض فى معركة شرسة. حينذاك يسمع وقع صوتها الخافت وكأنه ينتمى إلى شبح ما.

انه شديد الفقر فلا يمكنه أن يؤجر محلا، أقام النجار منضدته فى ركن من الحوش، يرى دوما منهمكا فى عمله الدقيق والمتواضع. ولكن هذه المهارة الدائمة تخفى توترا. دائما ومأساويا، ففى الحقيقة ان العمل الذى يؤديه النجار، ليس استجابة لطلب الزبائن، إنه بكل بساطة بالنسبة له، نوع من التخدير لروحه المستأثرة بعمله الكنود. حاول أن ينسى فقره المدقع. خاصة الجوع الشديد الذى يستبد به. بلغ ابراهيم شحاتة أقصى حدود المقاومة الانسانية أمام قوى المأساة الذليلة. عاش دنياه. كأنه يسير أثناء النوم. ملابسه ممزقة. أشبه بمومياء. مومياء قديمة جدا. جاءت من أزمنة بعيدة بربرية.

رآه العجوز كاوه يقوم بقطع الخشب. لم يتمكن أبدا من اعطاء العمل قوته المحدودة. لم يعرف ابدا ما هو بالضبط. ولا فى ماذا يبذل كل

هذا المجهود الميئوس منه. بدأ الأمر مليئا بالغموض. سمع مسح خشب، وصفير شاحب للرجل. كم عانى العجوز كاوه من هذا الجهد المضنى الذى لا ينتهى. فهذه الضجة غير الملموسة لهذا المجهود تمزق أمعاءه. قام وخطا بضع خطوات فى الحوش. واحس برغبة فى الحديث مع النجار. أراد أن يحكى له قصة الطفل العارى، ولكنه لم يجرؤ ان يقترب منه، ياللشفقة! لماذا كان شحاته صموتا! ولماذا، بشكل خاص يبدو أكثر بؤسا من الآخرين وهل يمكن أن يكون أكثر من الآخرين؟ لا. مستحيل.

(2)

اطلقت الرياح صفيرها حول المترل. وتابعت غضبها التجوالى بعيدا. حتى الأطراف المظلمة، للمأساة والموت. وقف شحاته النجار أمام منضدته، مهتاجا فى حمية عناء تمنعه من الصراع من الجوع الشديد. انحنى العجوز كاوه من جديد، بعينيه المتقدتين واعضائه المتصلبة من البرد على بابه، ولم يبد عليه أن هناك شيئا يستلزم كل هذا الشرود الشاسع فى بشاعة الحياة.

وبعد قليل، نزل الحوذى عبد العال إلى الحوش وراح يتأمل الخراب مليا، ثم شرع يلفظ كل أنواع الشتائم ضد كيانات مجهولة. وفى النهاية، حدد تهديده حين.

قال:

– سوف أخنقه، ابن المومس، ابن المومس. حتى لو كان سى خليل، صاحب البيت.

وقف الحوذى وسط الحوش فى صحبة سوكة، أحد سكان المترل. إنه شاب نحيل يثير مظهره الغثيان. يتمرن ليكون مغنيا فى قهوة الحى القذرة. وضع خلف أذنه وردة حمراء، ذابلة تقريبا، تلقى على شخصه الحزين ومضة فريدة.

استدار نحو عبد العال، بشكله الكئيب وسأل:

– ماذا سنفعل؟

قال عبد العال:

– ماذا سنفعل! لا أعرف، هل أنا، بالمصادفة، حارس هذا البيت؟

قال سوكة:

– نحن فى حاجة إلى أفكارك العبقرية.

صاح عبد العال:

– افكارى، وأنت يامن عانيت كثيرا، ماذا تنتظر لتكون لك افكارك؟ لقد نلت مايكفينى كى اعلمك، كان عليك أن تذهب إلى المدرسة.

لم يكف عبد العال عن اثارة خمول رفاق الفقر. يزجرهم بشكل مستمر، حول لامبالاتهم كحيوانات فقيرة كسولة، يسببون له مختلف أنواع العصبية لاسباب عديدة عن مأساتهم. لم يعرفوا سوى أن يعيشوا فى خزى وهم فرحون بالشكوى. يعيشون حياة مريرة ومليئة بالاسى. لقد أراد عبد العال منهم أن يعتزلوا الأعمال القذرة. وتمنى أن يراهم يلقون هذا المصير البالغ الثقل. بمشاهدة الوقحة، أو أن يحاولوا بكل بساطة أن يعرفوا المنبع الذى ينضب. حتى هو نفسه ليست له سوى معرفة مستفيضة حول الجذور العفنة لوضعه الاجتماعى. ولكن هذه الصورة

غير المحسوسة لوعيه لا تكفى أن تجعله يشعر بأفضليته على الآخرين. كان يجهل أيضا المسائل الاقتصادية المعقدة، ولا يستطيع أن يحل المشاكل التى تنهشه، وهو فيها أيضا يتسم ببساطة بدائية عقلانية، فليست لديه سوى أفكار غير محدودة، محجبة مثل فجر الشتاء. لقد كان دوما فريسة للأفكار والصفا العابر تمتلكه قوة سحرية كى يفهم وكى يمسك بالأسباب الخفية لحظة البائس.

كان على الحوذى، على أثر حادث مشئوم، أن يبيع حماره. انه الآن يركن عربته فى ركن من الحوش. وعندما يجيئه العمل أحيانا. فان عبد العال يضطر أن يذهب لاستئجار حمار من السوق. لكن هذا لم يحدث سوى مرات نادرة. لذا فكر عبد العال أن يبيع العربة أيضا. وفى هذا الشأن اقترح عليه شحاته النجار يوما أن يقوم بتصنيع سرير جميل من هذه العربة التى لم تعد بذات فائدة، أو قطعة أثاث أخرى يستفيد منها. لكن الحوذى لم يعد يحلم بسرير، فهو فى حاجة أن يأكل. جاء هذا الاقتراح من شخص يتضور جوعا. ساخط عليه. ورد على النجار بلهجة دفاعية قائلا: ياعزيزى شحاته. لست فى حاجة إلى سرير كى أضاجع زوجتى. فأنا أضاجعها جيدا فوق الأرض. هل فهمت إذن؟

ولم يلح شحاته. ونسى الموضوع. هنا قال سوكة:

– أرى أن نطلب سى خليل حالا. فالأمر لا يمكن أن يستمر هكذا.

سأل عبد العال وكأنه قد نسى عما يتكلم:

– ما الذى لا يمكن أن يستمر هكذا؟

– ماذا بك يا رجل! إما أنك لا تفهم أو إنك غبى؟ أنا أتكلم عن البيت.

قال عبد العال:

– آه أنت تتكلم عن هذا البيت! لهذا أنت متعجل. الزمن أمامك. والحياة لا تزال طويلة.

كان العجوز كاوه متكئا دوما فوق عتبة بابه، وسأل:

– هل تعتقد أنه لا يزال متينا؟

أجاب عبد العال:

– لا أعرف يا كاوه. يا أبى. فلست مهندسا. كل ما يمكن أن أقول لك أن هذا المترل يخفى موتا مؤكدا. والآن السلام عليكم.

قال سوكة: أين تذهب. يا حوذى؟

– سأذهب لأنقل عفش ساحرة عجوز، إذا أردت أن تأتى كى تغنى شيئا ما، فهذا قد يحسن العمل.

– على عين أمك، فصوتى ليس مخلوقا لامتاع الحوذيين من أمثالك.

– اذن ابق هنا، وحاول أن تتعفن بسرعة.

ترك عبد العال المطرب، وبخطوة واثقة، توجه نحو العربة، استمرت السحب فى السماء، فى أعلى الفناء، فى دوران ثقيل مكفهر. قيل له دائما أن سواد حزن الاحياء الشعبية قد غزا السماء. سقط رذاذ مطر خفيف لبضع دقائق، يكاد يكون محسوسا، وتسربل البرد كالسم فى أجساد البشر الجرحى والجوعى، نزعت الرياح مصراع احدى النوافذ الذى سقط فى العطفة محدثا صوتا مكتوما. حطت حدأة دفعها الجوع للسقوط فى الحوش ولكنها استعادت توازنها بسرعة وراحت تخفق عن طرف السقف. وفى جزء من البيت، جلست امرأة تنتحب. ست ذات صوت يحطم النفوس الجامدة. ويغوص بها إلى أقصى انحطاط البشرية، أراد أن يخنقها، حتى لا يسمعها تصرخ بكل هذه الانات الحزينة، التى تكررها للأبد، حل حياتها، ومأساة دنياها.

توقف عبد العال أمام عربته وتأملها فى صمت. زم قلبه أمام هذه العربة الضائعة. المغطاة بالأتربة وبدت كشىء مثير للسخرية والهزؤ. كانت فى حال يرثى لها. تنبعث من أخشابها المنداة رائحة العفن والسوس، وبوضعها هكذا فان الحوذى صنع ملجأ نموذجيا. حيث اعتاد بعض السكان على قضاء حوائجهم فى هذا الركن من الحوش، وظل عبد العال مختلفا من الغيظ. وبدأ يقسم طويلا. ثم هدأ أخيرا، قرر أن ينظفها، وبحركة مفاجئة رفع طرف الجنفاص الذى يضعه حول رقبته كأنه ايشارب. وبدأ فى تنظيف العربة بكل وجدانه.

جذبت نبرة صوته بعض الأطفال الذين يلعبون فى العطفة، وفتحوا باب العطفة واقتحموا الحوش. فكم يتسلى الاطفال كثيرا عندما يعمل عبد العال. لانه يسمح لهم يتسلق العربة وهو يدفعها حتى سوق الميدان. وفى الحال احتدموا وهم يطلقون هتافات الفرحة. لكنهم سرعان ما لاحظوا المصيبة، وسرعان ما توغلوا فى كل أركان البيت. وبحركات محسوبة راحوا يبذرون الرعب بين النساء، ثم أخذ يحكى لهم التفاصيل التى احدثها ظهورهم فى الفناء وأصبح الأمر جديا بشكل مثير.

فى البداية، ظهرت زكية. زوجة بيومى. لاعب القرود. انها كائن قوى. تتمتع بمؤخرة ضخمة وثديين بالغى الضخامة. مثل البطيخات. وفى كل حركة من حركاتها يبدو التحدى. توقفت عند عتبة الباب. وقد وضعت يدها على مؤخرتها. وسألت بصوت علىء بالايعاز:

– ماذا هناك؟ ياناس؟

لم يرد أحد عليها.

ثم وصلت "خيشة"، زوجة شحاته النجار. انها كائن مخلوق بلا نتوءات. ولكن على العكس فهى مصابة بحمى خبيثة تضعها بين المخلوقات الأكثر مرضا. لم تقل شيئا. نظرت إلى زوجها باضطراب، ثم بدأت فى الاستماع بمظهر هادىء.

ثم جاء دور أم سعد، زوجة رشوان قاسم، مصلح موقدات الجاز. وهى تحاول أن تتراجع فى حياء. احست بالسعادة وهى ترقب المشهد من

بعيد، وتحاول ألا يضيع منها المنظر. هذا الموقف الحذر قد فرضه عليها غياب زوجها الغيور الذى لا يحب أن يراها تغامر بمجادلة الرجال. إنها انثى شابة ومثيرة. وتبدو كطفلة ولا تعرب اذا كانت حية أم ميتة.

ثم ظهرت مبروكة، زوجة عبد العال الحوذى، بوجهها المنتفخ. بدا أشبه بوجه رجل شهيد. لديها عينان حمروان من كثرة الدموع، وتلف يدها اليسرى خرق حمراء كانت تضعها على صدرها. وبعين بليدة نظرت إلى المنظر. ثم راحت تتنهد برقة.

وأخيرا، وصلت نفيسة. زوجة سليمان العبيط بائع الشمام. أحست منذ البداية فى داخلها بكل غرائز حب التدمير. ولكن زوجها كان نائما. لم تجرؤ أن تتركه. لقد كان سليمان العبيط نائما لأنه يعانى من بطالة ملحوظة. ومثلما ردد البعض، فان الشتاء ليس موسم الشمام ويستغل سليمان العبيط هذا الكساد كى يخلد إلى راحة طويلة. حاولت نفيسة أن توقظه، ولكن بلا فائدة، ففى النهاية لم تتمكن أن تتماسك طويلا. حاولت أن تنزل الحوش، إنها امرأة دحاحة، وفظة، ومشاكسة، وعلى الفور، استكملت عملها بيدها، فهى تعمل غسالة. وعليها أن تستخدم الحبل القذر.

تأملن كل هؤلاء النسوة، المتشابهات، أولا منزلهن التعس الذى أخذ شكلا مهيبا. ثم اصابتهن عصبية، وتفنن فى اطلاق اللعنات الشديدة، بينما انطلق صفير الرياح التى وجدت أمامها خربا. ولفترة طويلة رحن يصرخن بحناجرهن. ويسببن سى خليل صاحب البيت.

أخيرا اتفقن. وقفرن أن يذهبن للبحث، دون انتظار، عن صاحب البيت، وان يعاقبنه، بأن يلحقن به بعض المرارة الغريبة، قالت نفيسة:

– يجب أن يعجب قليلا بقصره. ابن العاهرة.

قالت مبروكة:

– يجب أن يأتى هنا بالقوة ابن "المقملة".

قالت زكية: انه بالتأكيد يسخر منا، بطريقته فى لوى الأشياء. فهو لم يجد رجالا أمامه.

تكلمت هكذا لأن زوجها بيومى، لاعب القرود، ليس حاضرا، وتريد أن تظهر للآخرين الها ليست، رغم كل شىء، مراهقة صغيرة. ولكن أيا منهن لم تضع فى اعتبارها هذه الملحوظة الهامشية. من ناحية أخرى فهذه هى النهاية. وهذه هى الظروف. فجأة اندفعت موهبة ارهابية حقيقية. الها خيشة زوجة شحاته النجار. هذه المرأة التى تكاد أن تموت من شدة الهزال، دون أن تبدو عليها أى بادرة حقيقية بألها امرأة وقحة، قالت:

– أحسن شىء نفعله هو أن نأتى بسى خليل، ونحبسه فى غرفة السطح الخالية. وهكذا سيعرف ماذا يعنى أن يسكن الناس فى مترل آيل للسقوط.

قال عبد العال:

– هذه كلمات حلوة. أحب اسمعكن تتكلمن، ايتها النسوة.

فى هذه اللحظة، وللمرة الأولى. نظر شحاته النجار إلى زوجته. وقد امتلأت عيناه بحزن مدهش. وقال:

– التزمن الهدوء. أيتها النساء.

لكن هؤلاء الغاضبات المفترسات. عاملنه كعاجز، فأطلقن عليه كل أنواع الاهانات التى تقلل من كرامته كرجل. استعدت البعثة للانطلاق. فى الحقيقة فقد كن سعداء أن يجدن كلمات تتفق مع حميتهن النبيلة. سرعان ما صعدن إلى مساكنهن. ثم تلفعن فى ملاءهن. أما الاطفال فقد استقبلوا هذا التناغم الضوضائى المفاجىء عن صاحب البيت. بحالة هذيانية من الفرح. لم يود أحد منهم أن يصحب عبد العال الذى بقى وحده. وجدوا أن من الافضل أن يتسلموا. أن يروا أمهاتهم ينزعن أمعاء سى خليل صاحب البيت. ويجعلنه عاجزا بقية حياته.

اقترب الصغير فايز، أحد أبناء بيومى، من سوكة وسأله:

– متى سينهار يا أخى سوكة؟

رد سوكة: اتمنى أن ينهار فوق رأسك، أيها التافه الصغير.

– على رأسك، أيها المغنى الفاشل.

أمسك سوكة برقبة الطفل. ودفعه مرات عديدة، ثم تركه بعد أن ركله فى مؤخرته. وهرب الطفل وهو يطلق السباب.

عادت النساء إلى الحوش وهن يلعلعن بأفواههن، ويلعن أطفالهن بالعديد من أشد اللعنات. فلا يمكنهن انتظار الكوارث طوال سنوات وقرون. راح الاطفال يسخرون ويتصرفون كشياطين. واهتز المترل بأكمله تحت وقع الاصوات العاصفة لهذه الكائنات المهترئة، لا يمكن لأحد أن يعرفهم فى صخبهم الجنوبى. المثير للدهشة كثيرا الها أيضا "خيشة" الرقيقة. التى لا ترتدى ملاءة. كانت مغطاة بأسمال تبعث على الرثاء وتبدو بالغة الهشاشة، ولا تكف عن الارتعاد من البرد. من الواضح أن بردا أصابها. لكنها احتملت الكثير من الاخريات، وبدا "صواقا" المبحوح وسط هذه الضجة، كأنه "صوات الموت".

اغلق العجوز كاوه عينيه، بدا نائما. فبحكمته كعجوز يؤمن بالمأساة فأنه يكره صوت النساء الحاد الذى لا ينتظر سوى فرصة كى يكشف عن موهبته فى البكاء المدوى والنواح. فهو فى أعماقه لا يزال يعايش صورة الطفل العارى. لم يستطع أن ينساه. تخيله وهو يجرى الآن فى الطريق، تدفعه الرياح، وقد تعرض جسمه كله لسكين حاد من البرد. لكنه فشل فى مواصلة التفكير فيه. وكأنه يخشى أن يتركه وحده. وبكل جسده العار، والمسكين. أحس أنه مرتبط به كأنه جسد آخر أكثر حيوية. لم يصبه اليأس بالخوار، فبالاضافة إلى معاناته كعجوز الهكته الحياة. هناك معاناة هذا الطفل الصغير العارى. شهيد وبرىء وساذج، التى تبدده الاحلام الصبيانية بالتدمير. قال أخيرا:

– أسكت هؤلاء النساء يا سوكة. يا بنى. سوف يجعلن البين ينهار بصواهن.

رد المغنى:

– هل أنا مجنون كى أشغل نفسى بهؤلاء النسوة المتوحشات؟ انهن قادرات على التهامى.

مال الشاب نحو العجوز وجال بنظراته فيما حوله وبدا كأنه يقاوم النوم. بأقدامه الحافية الملوثة بالطين وبجلبابه القذر، وطاقيته الحريرية، ذات اللون الباهت، ألقى رأسه للخلف. أعطى الاحساس بقذارته ولا مبالاته وعاطفته. أنه رجل رائع وعاطفى. فهو الأعزب الوحيد من بين سكان المترل، يرتاب الجميع فيه لانه بصوته الكئيب يمكنه أن يخلب ألباب النساء المستسلمات دائما للأسى. لكن بالنسبة للعجوز كاوه، فإن المرأة خدوجة التى تملأها التجاعيد، لا يمكنها أن تزعم أنها تثير حمية خيال المغنى، أما مسألة التحدى فانها لم تطرح بعد. بل على العكس فان العجوز يكن لها مشاعر ود عميقة. أبوية تقريبا. ولكن المغنى يفسد هذه الطيبة الشديدة دائما ويتصرف مع العجوز بأسلوب الابن العاق. قال كاوه:

– ليحمينا الله! ترى ماذا سيجرى لنا؟

قال سوكة:

– وهل لى أن أعرف. فلدىّ ما يكفى من المآسى. سوف أصبح، ابتداء من الغد، بائع فجل.

سأله العجوز: لماذا؟

دعك الشاب عينيه، وشرد طويلا. ثم قال مفسرا:

– لقد أخبرتنى تاجرة يوسفى عجوز ذات يوم، أنه بصوتى يمكننى أن أكون بائع فجل.

– حسنا. حظ سعيد يابنى.

بدا الصغير كأنه يخرج من حلم. قال:

– كيف! سوف تثير جنونى. أيها العجوز الخرف!

قال كاوه: لا تغضب. لقد كادت النساء أن تفقدنى عقلى. أرجوك، حاول أن تسكتهن.

حاول الشاب أن يتذرع بالصبر وقال:

– دعنى فى حالى. وشرف أمك. فأنا لى همومى الأخرى.

فكر سوكه فى الشابة ناهد. المسجونة فى غرفتها العليا. والتى لا تعرف ما يحدث. إنها زوجة جاره عبد ربه الزبال، غذى سوكه نظرته بعاطفة حزينة. فالزبال رجل فى الخمسين من عمره. شديد القذارة. وتفوح منه رائحة كريهة. وعلى العكس فان زوجته التى تزوجها حديثا منذ بضعة أشهر على قدر من الجمال، يانعة كالزهرة. لذا فإن الزبال شديد الغيرة، مما جعله يحبس امرأته دائما فى مسكنها الذى امتلأ بكافة

أنواع الزبالة من صناديق القمامة. وفى وسط هذا العفن المقدس، فقدت الشابة ناهد جمالها ونضارتها.. وذبلت بشكل مأساوى. منذ بعض الوقت، ثم بدأت تسعل بشكل يثير المشاعر. لم يمكنها أن تقاوم تلك الحياة المثيرة للتقزز. ففى كل ليلة يدوى صوت سعالها فى كل الأكواخ المجاورة. باختصار لقد كان ذلك اغتيالا منظما.

هذه المشاعر المشئومة جعلت المغنى فى حالة يائسة كئيبة. فقد بدت له الشابة ناهد، أكثر فأكثر، أشبه بخيال حصين. ولم يكن على سوكه سوى أن يقيس قوته. وحبه لزوجة الزبال. كان فى حالة أكثر كفرا بالنعمة. لأن الفتاة ناهد بشكل طبيعى، تجهل أن هذا الشخص الخائب يحبها. وحتى الآن. فان سوكه لم يستطع أن يقترب منها كى يعلن لها عن نبراته المتقدة. فالزبال لا يخرج زوجته إلا نادرا. لكى تزور صهريها اللذين يسكنان حى السيدة زينب. من ناحية أخرى، تتم هذه الزيارات فى سرية شديدة. حيث ينتظر عبد ربه حتى يخلو الحوش ثم يتسلل مع زوجته ويتأكد أن الاحتياطات التى يأخذها فى هذه المناسبات أشبه بالاساليب البوليسية ضمانا لاستقامة زوجته الشابة. ويحيط الأمر باحتياطات شديدة. فلا يترك أى شيء للمصادفة. فى الحقيقة، فان الزبال، من أجل عملية التأمين الكامل يلفع زوجته بأحجبة سوداء كثيفة، لا تترك حتى لاصابعها فرصة الظهور. وأمام هذه الاساليب الوحشية يحس المغنى بالحزن، لا يعرف ماذا يحدث. بينما تثار عواطفه وتهاجمه الأفكار المضنية والمشئومة.

وللحظة، كان عليه أن يحذر الزوجة الشابة من الخطر الذى يهددها ولكن، كيف يفعل؟ يجب عليه أن ينتظر حتى يعود زوجها الفظ. وفى هذه الساعة، فان الزبال الذى لا يطيقه أحد يكون منغمسا حتى عنقه فى ال،حال. يختفى منذ الصباح. ولا يعود إلا عند حلول الليل. وقد اتسخت ملابسه وفاحت منها الروائح النتنة. يثير روائحه منذ وصوله إلى الحوش. فينشر روائحه التى لا يحتملها أحد. رائحة عفانة فواحة وطازجة.

فى هذه الاثناء، كان الحووش قد اصبح مركزا لمأساة كبيرة، فالاطفال السليطو الالسنة يهيجون امهاتهم يدفعون بهن نحو مذبحة. فقد رحن هؤلاء النسوة بفردن اذرعتهن إلى آخر مداها ويطلقن الصراخات والصيحات المتتابعة التى تعبر عن نزق طائش، ووسط كل هذا، راح الجوع يشد نواجزه أشبه بكلب مسعور.

خرج سوكه من صمته وقال فجأة:

– لو كان معى ألف جنيه لاشتريت لك نظارات ياكاوه يا أبى. فأنت رجل طيب.

لكن هذه الدعابة ذابت فى الفراغ، لأن زوجة سليمان العبيط اقتربت، فى هذه اللحظة، من المغنى، وأخبرته أن ينبه زوجها فى حالة ما إذا استيقظ هذا الـــخير.

– قل للرجل انى ذهبت إلى سى خليل. وعليه ألا يقلق.

أجاب سوكه:

– لن أخبره بشيء يا امرأة. لانني أيضا سوف أنام. فليس لزوجك وحده حق النوم.

صاحت نفيسة:

– هكذا الرجال! كل المآسي تحدث لنا بسببهم!

قام سوكة. وبمودة بادية. ورفع الوردة التي يضعها خلف اذنه. وقدمها لزوجة بائع الشمام. وقال:

– خذي يجب أن تكوني جميلة حتى يغوي سي خليل.

وأصدرت المرأة حركة ساخطة:

– أبعد يا "صايع" ألا تخجل. لست في حاجة إلى زهرتك كي أكون جميلة. اغتسل أولا. قبل أن تتحلى بالزهور.

ابتعد سوكة مسرعا دون أن يستمع إليها. وصعد إلى غرفته.

فتحت النساء الباب الكبير وذهبن حاملات نقمتهن الحادة. وسقط العجوز كاوه من جديد في ظلمات حياته العميقة. فزبالة هذا الحوش قد تكدست منذ سنوات، في عالمه الوحيد. لم يحاول أن يخرج منه. من ناحية أخرى فان عليه أن يذهب، يعرف جيدا، انه في كل مكان، تنتظره مأساة فاجرة عليها أن تعثر عليه بسهولة. ثم عليه أن يختبيء تحت الأرض.

ظل غارقا لفترة طويلة فى تحولاته الصعبة. أحس بها تنمو. الآن تدور حوله عزلة غريبة، وكأن المعذبين فى الأرض قد خلوا فجأة من العالم. حيث يسيطر بكاء النساء بلا حدود. وصراخات الأطفال الأبدية الذين يلعبون فى العطفة، لقد قيل ان الورد ألغى كل تناقضات الموجودات. وانه سبب لهم الجنون فاسقطهم فى أعماق عرائنهم. نظر العجوز كاوه نحو رفيق مصيره، شحاته النجار، وترك عمله، وحدق فى الأرض. فى عناد غبى لرجل أعمى. بدا متحجرا منذ قرون. ترى فى ماذا يفكر؟ ربما سيعرف ذات يوم أن عليه أن يبوح يوما بكل مكنون معاناته. لا يمكن أن يسكت أبدا، عليه أن يبلغ جوعه إلى كل العالم، وبعد ذلك يمكنه أن ينام.

(3)

نحو الرابعة. بعد الظهر. هدأت الريح قليلا، وخفت السحب التى تملأ السماء بوجهها القاتم. واستعادت مسلكها الشارد وبدأت أشعة الشمس الشاحبة فى الانطفاء. واصفرت فوق الاسقف.

تنبأ سليمان العبيط بائع الشمام، وهو جالس فى الحوش بتنبوءات غريبة تتعلق بحالة المنزل. وبدا يأخذ الأمر بشكل جاد وهو يوقظ فكره العاطل. أخفق خوفه وهو يقوم بحركات عصبية، على سبيل المثال، راح يلمس الجدران بيديه، كى يختبر صلابتها. حاول سليمان العبيط أن يبدو كشخص يعرف المسائل المعمارية، لم يكن لديه شىء ينظر إليه. فقد غرق شحاته النجار، كعهدة دائما، فى كذبته المخيفة. لكن هذا الصمت المرعب كان كل ما يملكه بائع الشمام، شوهد منذ الوهلة الأولى، فى حضور أخرين، وهو يقف فى مواجهة هذا الخطر، موقف رجل خبير، صاحب قراره.

لم يكن سليمان العبيط رجلا يهتم بالاعتبارات. فكل السكان ينظرون إليه باحتقار شديد، لقذارته ودمامته، وجهله الشديد. فكانت الأمور سيان لديه. لقد تجاوز حدود الانسان، أما بالنسبة لنزواته الدائمة، فقد ساد الاعتقاد أنه خبير فى بيع الشمام. وبعيدا عن هذا التخصص، فهو يبدو عنيدا. ويرفض أن يتورط وان يمارس مهنا أخرى، والتى تعتبر

بالنسبة له حقيرة وبلاقيمة. هذا المفهوم الفريد الذى يعمل من أجله، يسمح له أن يقضى الفصول الأخرى فى وضع غير محتمل. فهو مدان لطبيعته بكثرة الإنجاب. لديه العديد من الزوجات الشرعيات. والعديد من الأطفال الذين لا يحصون عددا. فاعضاء هذا النسل الكثير متناثرة فى كل مكان من مختلف أحياء المدينة. لم يتمكن سليمان العبيط ان يعدها، لا هوولا من يعرفونه. وبعد مرات عديدة من الزيجات الفاشلة، بصفة استثنائية، ها هو يعيش الآن مع نفيسة ولا يظهر مع نسائه الأخريات اللائى تعبن من ملاحقته. ولم يستطعن أن يأخذن منه شيئا ما، فقررن أن يتخلين أخيرا عنه. ولسوء الحظ. فهناك واحدة. هى امرأة زنجية كما أنها حديثة العهد بالطلاق، استمرت فى الانقضاض عليه مرات عديدة فى محاولة لعقد لقاءات غير شرعية وكانت تتركه وهو يكاد أن يموت فوق الأرض.

مع هذا ظل سليمان العبيط مختلفا مع كل هذا التقلب الزوجى. فقد كان كسله أكبر من كافة المؤثرات الخارجية، أحس بالنشراح رغم المرارة والنكبات، فى الحقيقة، فان بائع الشمام كان يجهل ما هو سر الاغراء. الذى جذب زوجاته تباعا. لأنه تبعا لشكله الجذاب وفقره المدقع من مهنته المشئومة، فقد راحت زوجاته ينتزعنه لليلة واحدة، ثم ينتهى الأمر بالشجار فيما بينهن. فتندلع دوما لعبة المعارك الشرسة بين النسوة المقررات اللآتى تسهل هزيمتهن. بالطبع فان هذا يجعله يزمجر، ويشعر بالفخر فيما يتعلق بالجنون الذى يبدو عليه عندما يتحدث إلى احدى نسائه فرغم أنه فى الخامسة والأربعين من العمر ورغم شعره

الأشعث وفمه الأهتم تماما إلا انه يحتفظ بكل قوته كرجل لا تقاوم جاذبيته وفى أغلب شهور السنة. فأنه يغرق فى وحدة موحشة مؤذيه. أما نفيسة فتقوم باعباء المترل وهى تغسل أحيانا فى بيوت أثرياء المدينة.

ما ان يستيقظ سليمان العبيط حتى يترل الحوش كى يضع فى حسابه الخراب. لم يفت نفيسة أن تحكي له، بتفاصيل شديدة، المغامرة الهائلة التى فاتته. والتغيرات الحزينة لدى سى خليل. صاحب البيت. وبينما هو يستمع إلى امرأته تتكلم تساءل سليمان العبيط عما اذا كان قد مات أو دفن تحت الانقاض. كانت لديها طريقة غريبه فى قص الاشياء، أحس سليمان العبيط على الفور بالحاجة إلى أن يتنفس قليلا من الهواء. لكن الخوف نزعه من النومه الثقيل.

الآن وهو وحده فى الفناء مع هذا النجار الذى لا يكل، ويبدو أشبه بساحر فقد كشف لسليمان العبيط عن التخوف الحقيقى. وتوقف عن ممارسة الذكاء وأعد نفسه لمواجهة كافة المعاناة. وبعد عدة لحظات من التفكير السريع، راح ينادي زوجته، أدرك أنه جوعان، وهو الذى يعرف أنها نطهو شوربة عدس من أجل العشاء ظهرت نفيسة على أثر نداء زوجها خلف حاجز النافذة:

– ماذا تريد يا رجل؟

سأل سليمان العبيط:

– هل انتهت الشوربة؟ أكاد أن أموت من الجوع.

–لا. الا تصبر قليلا. شئ غريب. قل لى. هل جاء ابن الكلب؟

رد سليمان العبيط وهو يتظاهر برجولة متفوقة:

– ليس هذا شغلك يا امرأة.

قالت نفيسة: يومه أسود.

(كان المقصود بهذا النداء هو سى خليل، صاحب البيت، الذى عليه أن يمر بعد الظهيرة، فهم ينتظرونه بين لحظة وأخرى).

فى الصباح، عندما وصلت النسوة إلى مترل سى خليل فى حى المنشية، بم يكن ابن الكلب هذا فى مترله. كان بيته أقرب إلى الفيللا الصغيرة محاطة بسور مهشم يثير شهية اللصوص. استقبلتهن زوجته صارخة وأخبرهن أن زوجها ليس لديه ما يفعله مع نساء "شلق" مثلهن، وانه لا يجب إزعاجها فى كل لحظة، من الشحاذين الذين ليس لديهم أى مفهوم عن اللياقة. لم تكن زوجة سى خليل، قبل زواجها سوى لمامة شوارع. ولكنها الآن، تود أن تؤدى دور البرجوازية النبيلة الجديرة بالاحترام. رغم أن الجميع يعرف من اين خرجت هذه "لمامة أعقاب السجائر". لقد غدت كسولة ولم تعد هتم فى الآونة الأخيرة بمن هم فى سن الشباب، لم يفت زكية أن تذكرها ببعض التفاصيل الدقيقة، وهى تتحدث عن ماضيها كغانية سابقة. ثم دبت مشاجرة عنيفة، وبعد الكلمات النابية والتكشيرات الحادة، انسحبت زوجة صاحب البيت أمام العديد من خصومها، وأصبح عليها أن تتراجع وأن تحبس نفسها فى

المترل، هنا قررت النساء ألا يتحركن وأن ينتظرن سى خليل أمام الباب. تصرفن كأهن يستعددن للبقاء بضعة أيام، عندما نبههن أحد صبية الحى أن سى خليل موجود الآن فى المقهى المجاور يمارس لعبة الطاولة استعد الغلام لمصاحبتهن، مقابل ان يأخذ مليما. أنه من الطراز الذى يعرف ثمن هذا العصر. ودون تردد، اعطينه النساء مليما وتبعنه فى الطريق.

لم تبد له الحكاية جديدة للغاية. ولم تؤثر فيه بالمرة. فهو يعرف بيته جيدا ورغم ذلك حاول أن يهدأهن بكلمات خطابية بارعة، ولكن النسوة الساخطات أردن أن يصحبنه توا كى يرى قصره، كما يقلن. راح سى خليل يشرح لهن أنه لا يمكنه أن يغادر المكان الآن. لأن هؤلاء الافندية يناقشون معه بعض الأعمال العاجلة. وعدهن أن يأتى لرؤية البيت. فى أحد الأيام القادمة. ثم نظر إليهن. ودلك يديه وابتسم بطريقة غريبة. وفى حججه المنمقة وابتسامته الكاذبة فهمت النساء أن عليهن أن يتصرفن بسرعة. وعلاهن التهديد بشكل واضح وكشفن عن انياهن بكلمات لا تنسى. وأخيرا سيطرت خيشة، التى اصابتها الحمى، على الموقف بطريقة مثيرة للضحك. وبالغة المهارة. فانتهزت غفلة سى خليل. وخلعت عنه بحركة مفاجئة. طربوشه ثم اعطته لأحد ابنائها الذى سرعان ما ولى الأدبار. هذا يعنى اهن احتفظن بطربوشه كرهينة. وانه من الأفضل بالنسبة له أن يأتى بسرعة للبحث عنه. وقبل أن تقرضه الفئران. وأمام هذا المشهد اللصوصى الأحمق. احتفظ سى خليل بأعصابه باردة. بسبب هؤلاء الافندية الشبان ووعد أن يمر عليهن بعد الظهيرة.

نظر سليمان العبيط إلى النجار وهو يعمل. هذا المنظر يمثل له فى داخله حالة من الندم. شاهد هوة سحيقة من الفراغ المبهر، تذرع بالصبر، انه قلق وحيد مع جسمه الرخو، الذى لا يزال يحتفظ بسره بشكل يثير الغيرة للاحتقار العنيد. حاول أن يوجه إليه الكلام، ولكن الآخر نظر إلى عينيه الكمداء، ولم يرد على تساؤلاته. بصق سليمان العبيط أرضا بكل قوته. ثم شرع فى الدوران فى الحوش مناشدا أى تصرف كريم. أحس أنه وقع فى مصيدة. وأحس أنه شيدت من حوله حواجز صناعية تتطلب قوى قدرية. ومن وسط هؤلاء الجيران المتعبين انبعثت رائحة عدس شهى أثارت خياشيمه وأربكته تماما، وأحس بالجوع، من جديد، ينخر معدته وفكر أنه قد آن الأوان كى يصعد إلى غرفته. الا أنه رأى شبح سوكه ذلك المغنى الغريب الذى قفز عندما التقاه:

– قل لى ماذا يجرى؟ هل سينهار المنزل حقا؟

رد سوكة: لا أعرف، اتركنى فى حالى يا رجل.

بدا المطرب وكأنه ضرب ضربا مبرحا. لقد قضى النهار فى التفكير. فقد استحوذت عليه مشاعره الغامضة نحو زوجة الزبال التى شغلت عليه كل تفكيره وجعلته مرتبكا وحائرا. سبب له هذا الأمر المتاعب. بالإضافة إلى هذا البيت الآيل للسقوط، وتعقدت الأشياء كثيرا. أصبح سوكة مهووسا بفكرة الفتاة ناهد. المحبوسة فى مسكنها. والتى لم تساورها ابدا مثل هذه المشاعر.

بدا سليمان العبيط عصبيا وقال:

– كنت أظنك ذكيا. فإذا بك لا تقول شيئا.

رد الشاب: يا ابن الجاهلة. دعنى فى حالى. والا ناديت امرأتك الزنجية فهى وحدها التى يمكن أن تعيد إليك صوابك.

وعندما سمع اسم "الزنجية" سمع صوت نفيسة يسأل من أعلى النافذة:

– من ينادى على الزنجية؟

لم يرد أحد عليها. استبد الغم بسليمان العبيط وصعد إلى غرفته كى يأكل العدس فى صمت. وأهاجت ذكرى امرأته الزنجية مشاعر عاطفية قوية.

عندما نزل ثانية إلى الحوش. رأى المغنى فى صحبة العجوز كاوه، فسأل الرجلين:

– ألم يأت سى خليل البائس! المرأة بأعلى لم تكف عن مضايقتى. تقول أننى الذى منعته من المجىء.

قال سوكة: اسمع، تأكد أن سى خليل لن يأتى. أنا أؤكد لك هذا.

– كيف عرفت؟

– لا يهم! من ناحية لأن سى خليل لا يمكنه أن يفعل شيئا. فهذا المترل يسكنه الشيطان.

قال سليمان العبيط:

– انه صاحب البيت. والبيت ملكه وعليه ان يمنعه من الانهيار.

قال سوكة: يمكنك أن تنتظره دوما. فهذا البيت سينهار الليلة على أكثر تقدير، واستعد لذلك.

علق سليمان العبيط:

– هذه الليلة! يجب أن نعزل حالا.

قال كاوه: نعزل! أين تحسب أنك ستذهب؟

تساءل سليمان العبيط:

– لا أعرف. ولكن انتم جميعا. الا تحسبوا أنكم ستعزلون؟

قال سوكة: نحن نفضل أن نبقى هنا.

– ألست خائفا؟

قال كاوه: نخاف من ماذا؟ أؤكد لك أن هذا كله لا يعنى شيئا. فهدىء نفسك.

هتف سليمان العبيط:

– كيف! سوف ينهار المترل وانت تقول أن هذا لا يعنى شيئا. أنت تدرى جيدا، يا أبى كاوه أنك أصبحت عجوزا وأنك لا تخشى على حياتك.

سأله سوكة:

– وأنت. هل تخاف على حياتك؟

رد سليمان العبيط: طبعا فانا أخاف على حياتى. لماذا لا اتمسك بحياتى هل أنا يتيم أو أن أمى كانت عوراء؟

قال سوكة: معذرة. ولكن كيف كانت أمك؟

– هذا لا يعينك. على كل فقد كانت أجمل منك.

قال سوكة: لو كانت تشبهك، فأنا سأشكو الحى الذى شهد مولدها.

قال سليمان العبيط:

– حقا، أنا لا أعرف كيف أغنى. ولكننى بائع شمام شريف. ولدىّ ابناء أكبر منك. وهذا على الأقل مدعاة للاحترام.

قال سوكة: أولادك، اننى اتبول عليهم من أعلى.

وبلا تردد وكى يعطى الثقة لكلماته، قام وراح يتبول بالفعل على الحائط. فى نفس المكان الذى اعتاد فيه عبد العال أن يضع عربته.

فى هذه اللحظة، فتح باب العطفة وأخذ يطلق صريرا. ودخل بيومى، لاعب القرود، إلى الحوش تتبعه حيواناته.

كان رجلا شاحبا ذا عينين مليئتين بالغموض. يرتدى جلبابا من القطن الازرق وقد حزم نفسه بحبل. كان يضع حمالة حقيبة من الكتاب وضع فيها ثعبانا مروضا. حيا الرجلين وهو يطلق نظراته الغامضة. ثم انطلقت من فمه كلمات غير مفهومة.

قال سوكة: عليكم السلام، ما رأيك فى هذا؟

وأشار إلى البيت أعلى رؤوسهم.

رفع بيومى رأسه، نظر ولم يقل شيئا. بدا كأنه يعيش فى عالم من الصفاء النفسى قابعا خلف حدود الخوف. وبحركات احتفالية غريبة انشغل بجمع حيواناته، راح القرد يعاكس الماعز وأراد أن يحركها فى استعراض أمام الناس. جره بيومى من السلسلة، ثم نزل إلى الأرض وقال له:

– يجب أن يكون لك زبائن. يا له من أمر محزن! فالزبائن قليلون الآن.

قال سليمان العبيط:

– نحن نكاد أن ندفن أحياء. وأنت، يا رجل. تفكر فى الزبائن أين عقلك؟

قال بيومى: أعرف رجلا دُفن حيا. وكان يعرف أشياء كثيرة.

تكلم بصوت عميق أخذ يطبعه بأسى ملحوظ. إنه صوت رجل اعتاد أن يكلم الحيوانات.

سأل سليمان العبيط، وقد أصابه فضول شديد لهذه القصة:

– وماذا كان هذا الرجل يعرف؟

رد بيومى: يعرف كيف يسكت.

انفجر سوكة ضاحكا. فها هو لاعب القرود تبدو له حياة المتشردين أكثر شاعرية من حياته. ظل سليمان العبيط مذهولا. حاول أن يتماسك، وهو يصدر حركات من وجهه تنم عن الغباء.

قال سوكة: يا بيومى، سوف ينهار هذا المنزل بين لحظة وأخرى.

قال بيومى: لن أكون مبغوتا أبدا. يا لها من فكرة مشئومة أن ينهار الآن.

– لماذا؟ ماذا هناك من خصوصية الآن؟

قال بيومى: بسبب البرد. فالجو بارد بالخارج، وكيف نعيش فى الشارع الآن؟

قال سليمان العبيط:

– عندك حق، ففكرة النوم فى الشوارع مزعجة.

سادت لحظة صمت عريبة. وخيم هدوء مرعب فوق كل الكائنات المشوهة فى الحوش. ومن بعيد انطلق صوت امرأة مبحوح تنادى طفلها. سيطر على روح الرجال احساس بالقهر أمام هذا التوتر الحتمى تجاه ما ينتظرهم من مصير.

ثم استطرد بيومى: الأمر يتعلق بالاعتياد على الحياة داخل الخرابات.

سأل سليمان العبيط برقة:

– كيف هذا؟

كرر بيومى: نعم، نحن نعرف كيف نعيش فى الخرابات. الا تعرف كيف تعيش فى الخرابات؟

– لا وعين أمك، لم أتعلم بعد.

قال بيومى:

– عليك أن تتعلم. وبعد ذلك، ستصبح حياتك سهلة. لقد عشت طويلا فى الخرابات. وفى الركن الآخر من المدينة. وفى الأرض المهجورة. قريبا من بولاق كنت رفيقا للكلاب المتوحشة.

وتوقف عن الكلام، ونظر حوله بمتعة. بدا كأنه يتطلع بعينين مليئتين بالتنبؤ تكدست الانقاض. قفز القرد، مليئا بالحيوية، حول سليمان العبيط الذى حاول أن يتخلص منه وصاح:

– خذ قردك من هنا. "هو احنا ناقصين مصايب"؟

سحب بيومى القرد من قيده. وجره أيضا مع الماعز. وقال:

– سأعيد الحيوانات. سلام عليكم.

صاح به سوكة: سوف ننتظر سى خليل. سوف يأتى توا. نحن نعتمد عليك فى استقباله.

قال بيومى: لا أحب رؤية هذا الرجل.

دلف من الباب واختفى بينما انحنى الرجلان فى الحوش، وهما يستنشقان روائح الحيوانات المروضة.

(4)

فوق الطريق الطويل الصخرى الذى يمر عند سفح القلعة، ركب سى خليل دراجته وراح يبدّل بهدوء كرجل وقور محترم. وبكل كيانه اتخذ شكلا ساخرا، وهو يتحرك فوق الطريق. لمعت عيناه بالرغبة والسيادة والمجد، ورغم ذلك، كان هناك شيء يفسد هذا التناسق السيادى، والمتنامى عند سى خليل. فقد اعتملت فيه أفكار سوداء. أحس بالبرد ينخر رأسه العارية. أزعجته هذه الأحاسيس. كأن احترامه غير موجود، فى اطار ما ينقصه من ثياب، بشكل عام هناك أخطاء. فهو سليل الأكابر. يتحرك عارى الرأس. بلا شك فهذه المخاطرة تفقده الاحترام فى عيون الناس، فما هو الفرق بينه وبين أول صبى يقابله؟ وأيضا حركات هؤلاء النسوة الفاجرات، التى جاءت بـــ "سى خليل" فى البرد القارس، انه أكثر دهاء كى لا يسمح باثارة فضيحة. عليه أن يتصرف بحزم مع هؤلاء المتوحشات اللائى لا يصدهن شيء ألم يكفيهن من فساد كى تحولن هذا البيت إلى انقاض. ألم تكشف الحيطان الهشة أمام العيون، عن يقين موت بشع؟ لا شك أن مجازفة كهذه جعلت سى خليل يفكر ويلزم الحرص.

كان سى خليل مالكا لبيوت عديدة مماثلة. فى البداية كانت ثروته متواضعة لكن هذا يرجع إلى مجموعة من الأنشطة غير القانونية. وبعد سنوات من البحث المضنى. اكتشف مصدر ربح عجيب بمبلغ صغير.

فانغمس فى شراء بعض المنازل الآيلة للسقوط، على انها مجموعة انقاض، من ملاكها. كان سعيدا أن يتخلص منها قبل ساعات من الانهيار الكامل. جالبة لقمة عيش جيدة. واكتسب خبرة فى اعادة ترميم هذا الركام المرعب. اشتم بحاسة كلب بوليسى قدرته فى المعرفة واكتشاف مستقبل انقاض المدينة التى كانت هياكل أسطورية. إنه الآن يملك العشرات منها فى مختلف العطفات فى الأحياء الشعبية. انها لعبة مصادفة تلك التى خاضها سى خليل، لأن هذه المنازل يمكن أن تنهار قبل أن يحصل عليها لكن الأمر سيان بالنسبة له، كم كان سى السيد محظوظا للغاية، فلم يحدث أن مات أحد من السكان. ولم تكن الكوارث بمثابة وقائع مما شجعه أن يكون رجلا محترما وثريا.

ما أن دخل سى خليل باب العطفة. حتى نزل من فوق دراجته وبدأ فى نزول المنحدر، محاذرا ألا يوسخ حذاءه والأزرار الجلدية الصفراء بالأتربة. وبكل حرص أمسكت يده اليمنى المقود بقوة. وتقدم فاردا قامته. فهذه الدراجة هى الشيء الذى يكسبه مهابة. انها تتحدى البذخ الصارخ لكل دراجات الدنيا. فقد حرص سى خليل على وضع قطع من الحلى النحاسية. يا لها من دراجة غريبة، تمثل كافة الموديلات العالمية الراقية. والعلية الكفاءة. لها مرآتان عاكستان، مثبتة كل واحدة منها على جانب المقود. لاشك أن امتلاك مثل هذه الدراجة يمثل جزءا من خطة سرية يتبعها سى خليل منذ وقت طويل. بالإضافة إلى أنها تؤدى خدمات هامة له. فسى خليل فى حاجة ان يذهب يوميا كى يلقى نظرة، ابعد مما يمكن، على ممتلكاته العديدة، الواقعة على مسافات بعيدة، عن بعضها

البعض. هذا الفحص اليومى، يأتى عادة فى نهايته بمفاجآت غير طيبة. وعند العودة من هذه الدورات.. فان منظر المنازل لا يوحى بأن هناك شيئا يمكن اصلاحه، لهذا استطاع سى خليل أن يقضى يوما هادئا وهو يمنى نفسه بفرحة مرتقبة.

بدا كأنه يحتقر العطفة. وأحس سى خليل بوقائع المأساة المهنية التى حاول أن ينساها فى فيللته الصغيرة بالمنشية. فى هذا الجو المحاط بالتهديد. أحس بنفسه ضائعا، وكأنه معرض لانتقام خفى من كل البشر. توقف أطفال هزلاء يرتدون الاسمال عن اللعب. وركزوا عليه أعينا ماكرة، يلمع فيها الحقد البين. فقد سى خليل هيبته شيئا فشيئا. بذل كل ما لديه كى يبدو قويا ومسيطرا على نفسه من وقت لآخر راح يتأمل احدى المرايا العاكسة. يتأمل وجهه البشوش الحليق وشاربه اللامع المدهون. مما ضاعف من شجاعته.

ظهروا ماثلين عند أبواب مساكنهم. انهم مخلوقات خائرة القوى. تنم وجوههم عن المآسى، استسلموا لثرثرة فيما بينهم. تقدم خليل وسط هؤلاء البشر الذين يثيرون الغم بكل مهابته التى اتاحت له أن يرتدى دثاره الاسود الكامل. وجلبابه الصوفى الفستقى اللون. وعند رؤيته. صرخت امرأة ثرثارة عملاقة، متشحة بملاءة وهى تدق بيدها على صدرها "ياحوستى" لقد قيل انه مات!

ولكن هذه الكلمات المشئومة الموجهة لسى خليل تحولت الآن إلى حكم عام يمكن أن يطلقه هؤلاء السكان البشعون.

وأمام الباب الكبير الذى يبدو كأنه من القرون الوسطى. توقف سى خليل. وانتظر لحظة. فقد احاطت به مجموعة من الاقزام المستفزين. الذين راحوا يحدقون فى دراجته. وقد انتابتهم رغبة وجرأة مجنونة ان يلمسوها. مما أجبر سى خليل أن يدفعهم أن يكفوا عن صده وهيئته المثيرة تماما للسخرية.

لم يستطع سى خليل أن يدخل الحوش. دفعته غريزته أن يحس أن هناك تهديدا بداخلها، وعليه أن ينتظر، وبكل عصبية، بدأ فى تشغيل جرس الدراجة، كى يجذب السكان نحو الخارج. وبعد قليل، وعلى أثر سماع هذا الرنين المدوى الممزوج بصياح الأطفال خرج بعض الأشخاص عند الباب الخشبى قال سى خليل:

– السلام عليكم.

حاول أن يكون ودودا ولطيفا. رد عليه سوكة:

– احتفظ بسلامك لنفسك وادخل لتى قصرك. أم أنك تخاف أن ينهار فوق رأسك؟

وعلى التو، فهم سى خليل أن الأمر ليس سهلا. ومن هنا، قال:

– ليس هذا شغلك. إذا لم يعجبك قصرى. فعليك أن تعزل إلى عماراتك الشاهقة. لا أريد أن أدخل هذا المترل. لانك تجعل رائحته كريهة.

وعلى التو انطلقت صراخات متوحشة:

– ماذا تنتظر، ادخل يا رجل.

– تعال لترى المقبرة التى تعدها لنا!

– أتريد أن تدفنا يا حانوتى!

استقبل سى خليل هذه الشتائم البذيئة، وتذكر بألم شديد مسلسل الصباح. فهذا يمنحه الفرصة أن يستعيد كرامته. قال موجها كلامه لخيشة:

– أعطنى طربوشى. يا امرأة.

هلل الاطفال لرؤية صاحب البيت غاضبا لهذا الحد. لم يهتموا الآن بلمس الدراجة وتشغيل الجرس. أحس سى خليل بأنه متورط بطريقة يصعب اصلاحها. لم يستطع أن يتراجع وشوهد وهو يدخل الحوش مضطرا. ولكن من ناحية أخرى لم يكن يعرف ما عليه أن يفعل بدراجته. أيتركها بالخارج فى حوزة هؤلاء الأطفال الانجاس الذين بدوا وكأن خطرا استبد بهم. تردد طويلا. ثم أمام نظرات الأوغاد الغاضبة دخل الحوش. راح يسحب دراجته معه.

وجد فى استقباله كل جموع السكان. كل منهم فى مكانه، وكأنه ارتكب جرما سكتت النساء كى يتركنه ينظر على راحته. ظل ساكنا فى حالة انتظار، كأنه لا مفر من المواجهة.

قال عبد العال:

– انظر جيدا وقل لنا رأيك.

استغرق سى خليل وقته، ثم رفع رأسه وبدأ فى فحص أجزاء المنزل المختلفة الواحد بعد الآخر. تابعت نظراته الجدران ذات الشقوق الخطيرة. وبدا كأنه يحدد ابعاد الكارثة. ايقظ هذا التدقيق شعوره القوى نحو النقاض. وبعد لحظة من الانبهار أمام هذا الخطر الذى تحسسه عن قرب، راح يخدع نفسه، ويخفى قلقه، قال بصوت حاول أن يجعله مختلفا:

– بشرفى كل هذا لا يمثل شيئا. مجرد شقوق بسيطة. ياناس! لا يوجد أى خطر. أتثيرون كل هذه الضجة من أجل هذا؟ اعتقد انكم لستم على حق.

علق رشوان قاسم:

– هذا كلام حلو، هذه الشقوق يجب أن نصلحها. وأنا أعرف ماذا أقصد.

قال سى خليل: لماذا نصلحها. قلت أنه ليس هناك ما يُخشى منه. فهذا المنزل أقوى منك. ولن يقع أبدا فى الوقت الحاضر.

قال رشوان قاسم منرفزا:

– وأنا أخبرك أنه سيقع.

قال سى خليل: "تف من بقك" يا رجل. لا "تقول" على مترلى.

كان رشوان قاسم، مصلح موقدات الجاز. واثقا فى نفسه وعنيدا. انه يتصرف كرجل "صنايعى" على خلاف السكان الآخرين. الذين يرتدون الجلابيب. أما هو فيرتدى "عفريتة" من الكتان الأزرق من قطعتين. ومستعملة. مرتقة من كل النواحى. وتبدو له مهنته كأنها تضم كل عناصر التقنيات الحديثة. وشك ان معرفته لهذه الأمور المهنية تفسد حياة كل سكان المترل.

بدأ الجو فى التكهرب. فسى خليل لا يعرف كيف ينسحب، وأصبح موقفه حرجا. أما النساء فقد استعدن دورهن كضحايا. وتدخل الأطفال أيضا فى الموضوع، اقترب بيومى من صاحب البيت:

– هل يمكن أن أطرح عليك سؤالا؟

– اطرح سؤالك. لكن لا تضيع لى وقتى.

– اذن، فأنت ترى أن المترل جامد.

أكد سى خليل:

– نعم، بشرفى. إنه جامد.

سأله بيومى:

– أنت متأكد؟

تردد سى خليل فى الاجابة. وراح يحدس أى فخ يريد أن يشده إليه لاعب القرود. إنه رجل غريب السلوك، ساحر. أجاب منرفزا:

– أجل. أنا متأكد. متأكد جدا.

– فى هذه الحالة. كل شيء على ما يرام. أريد فقط أن أعرف أنك متأكد. ولكن قل لى. ألم يحدث أن خدعك أحد؟

قال سى خليل بتلقائية:

– صاحب البيت لا يخدع أبدا.

أثارت هذه الثرثرة التى لا معنى لها كل الناس، نظر سى خليل حوله بقلق، بحث عن شخص يتكلم إليه بجدية.

سأل:

– أين عبد ربه؟

قالت احدى النساء:

– ماذا تريد منه. هذا الزبال لم يعد بعد.

نادى عبد ربه. فسى خليل يعرف ما سيفعله. ولديه أسباب محددة.

فالزبال شخص جاد ولديه مهنة معروفة، ومحترمة، وحسبما يرى، فان السكان الآخرين ليسوا سوى متشردين. وهو يفهم اللغة الحسية. ولم يشك سى خليل أن يسمعها منه.

قال سوكة:

– الآن، ماذا تنوى أن تفعل؟

قال سى خليل:

– سوف اذهب. فهذا البيت ملكى. واعرف ما يجب أن أفعله. وليس انتم الذين تعلمونني.

هنا قال عبد العال:

– بيتك. بيتك. آية يا سى خليل. إنه ليس سوى كومة من الحجارة والزبالة.

اثار هذا الكلام، المنطلق من صوت بائس، وهادىء، الهرج للحظة، وبدا سى خليل مندهشا. فقال على التو:

– سنرى جيدا. فأنت لست سوى حوذى تجهل قيمة الأشياء. فهذا المنزل الذى تراه، يساوى أكثر من ألف جنيه يا رجل.

علقت مبروكة:

– انه لا يساوى أكثر من ألف مليم.

اسكتها عبد العال:

– أريد أن أقول يا سى خليل. ان منزلك لنا. وبدوننا لا يساوى شيئا مطلقا.

– أنت بالتأكيد واقع تحت تأثير الحشيش. يا رجل. فأنت تقول كلاما فارغا.

قال عبد العال:

– بل أنت الذى تقول كلاما فارغا. ولا تفهم. ولكن رغم ذلك سأشرح لك. اسمعنى. هذا المترل، الذى تقول أنه يساوى أكثر من ألف جنيه. أخبرنى فيم يفيدك، لو تركناه فجأة؟ لن يفيدك أبدا الا فى المراحيض، أنت تفهمنى الآن.

بدا هذا الجدل الغريب لسى خليل قمة فى الحيوانية واللصوصية. بقى مذهولا للحظة. وتأمل مترله بعين متحدية وصامتة.

حقا، فالحوذى لا يجهل شيئا عن قيمة الاشياء. ببساطة فان مفهومة قد تغير تماما منذ وقت طويل. وقد بدا له شيئا فشيئا، ان الزمن يمر، وانه بلا عمل. فكر فى عربته التى تتمدد بشكل بائس فى الحوش. لقد اعتبرها عبد العال مجرد كومة من الخشب. هذا هو الأمر الذى أثر فيه حقا وهذا هو الموضوع الأساسى الذى أثار دهشة سى خليل.

قال سليمان العبيط:

– هل تتصورنا عبطاء. الآن. رد عليه إذا كنت شجاعا.

قال سى خليل: إذا تركت نفسى للدهشة، فيمكن أن أرد عليه. ولكن للأسف، فأنا صاحب بيت محترم.

عض سى خليل شفتيه من الغضب المستعر. فهو لم يجىء هنا كى يعرف هذه الحقائق العجيبة. التى جعلت من بيته كتلة حجارة وزبالة. استمرت المناقشة وقتا طويلا واستبد بسى خليل قلق قاتل. وشيئا فشيئا، كان يجب عليه أن ينسحب.

هنا خطرت بباله فكرة رائعة. فقال وهو يوجه كلامه إلى الجميع:

– طالما أنكم لا تريدون أن تصدقونى. فسوف آتى لكم غدا بمهندس. وسيقول لكم رأيه. واتمنى أن تصدقوا المهندس. إنه رجل متعلم. وذهب إلى المدرسة.

سألت زكية:

– وأنت. هل ذهبت إلى المدرسة؟

– هذا الأمر لا يعنيك يا امرأة. الآن. سوف أترككم. سلام عليكم.

ثم اعتدل فى وقفته:

– أين طربوشى؟ أريد طربوشى.

سلموا له طربوشه "المكرمش" فلم يتعرف عليه. أمسكه سى خليل. وراح يلفه فى كل أوجهه. وأطلق تكشيرة ذات مغزى. ولكنه لم يجرؤ على الاحتجاج.

خرج من العطفة دافعا دراجته بكرامة. ثم نزل المنحدر بطريقة جنونية. وانطلقت صرخات السخرية تصاحبه بلا نهاية.

لم يبق الآن فى الحوش، سوى الرجال. فقد صعدت النساء إلى مساكنهن. كى يعددن شيئا لوجبة المساء. وعاد الأولاد إلى العابهم الخشنة فى العطفة التى أعلن فيها عن غروب الشتاء.

اقترب سليمان العبيط من العربة. وقال:

– لم أتصورك بهذا الكرم. لقد قلت لابن الكلب هذا أشياء رائعة، بشرفى أنت رائع.

ولكن عبد العال لم ينتبه إلى هذه المجاملة الصادرة من بائع الشمام، فقد غرق منذ الصباح فى حالة من الغضب الشديد. فجأة انفجر يسب الدنيا كلها. وقال حانقا:

– ماذا بك يارجل. يا سليمان العبيط؟

– مسكينة الست نعيمة! ليرحمها الله! ليتها تموت!

سأل سوكة: ماذا فعلت؟

– ماذا فعلت! يا الهى! لا يمكن أن أقول لك. لأنها نكدية دائما. كما تعرف. فقد ذهبت هذا الصباح كى احمل لها اسمالها. لقد أكدت هذه العجوز الغبية حاجتها للعزال. هل تعرف لماذا؟ كى تسكن قريبا من زوجها المرحوم الذى يشغل مقبرة فى الأمام الشافعى. أخبرتنى أنها منذ

وفاة زوجها لا يمكنها أن تعيش وتحس بنفسها وحيدة هناك. وانها تريد أن تحس بصحبته. ولذا، وليت الادبار. وذهبت لآخذ حمارا من السوق وذهبت للعمل. يا له من عمل! قضيت النهار كله فى نقل الاحمال الكثيرة للغاية. وعملت دورات عديدة بحثا عن المقبرة وعندما انتهيت. فتحت منديلها ومنحتنى ثلاثة قروش. ثلاثة قروش لهذا العمل المضنى "ربنا يعميها" الآن يجب أن أدفع خمسة قروش لابو زغلة. مستأجر الحمير. اذن فأنا مديون بقرشين بسبب هذه الداعرة القذرة وبعد أن عملت طيلة النهار، ماذا تقول لهذا البؤس؟

قال سوكة:

– يجب أن تخنقها.

وسرعان ما هبط المساء على العطفة. وتعب الأطفال، وأحسوا بالجوع فراحوا يهمسون بصوت خفيض عن موضوعات لا يعرفون إذا كانت حساسة أو جذابة، بشكل بسيط. فالحياة المتوحشة للحوش كثفت الظل. وشُوهد عبد ربه الزبال حين وصوله ثم صعد دون أن يتوقف، حيا الرجال بحركة مليئة بالازدراء. وافترش سليمان العبيط ملاءته وجلس فوقها. وبدأ فى الصلاة، انه يفعل ذلك كى يعرف الآخرين انه رجل مؤمن.

وما لبث الليل أن حل على تلك المأساة التى تساوى ألف جنيه.

(5)

كان صباحا رائعا. بدت السماء ذات زرقة شاحبة، لا يظهر فيها أى أثر للسحاب. وانطلقت الشمس تملأ الأرض. وبدا الجو رقيقا. يمكن الاحساس بجماله.

كان كل شيء جميلا، أجل، خاصة الحى الافرنجى، على الضاحية الأخرى للنهر، هناك حيث تبدو الفيللات الفاخرة والحدائق المزهرة. ولكن فى الاحياء الشعبية، فان الشمس الرائعة بدت أشبه بشخص قاتل، فتحت أشعتها المائلة كانت الاكواخ المقززة أشبه بخطوط الدماء. التى تكاد أن تختفى، كى تسقط من جديد فى الظلام الذى يثريه الليل، فليس هناك سوى الليل للفقراء. هناك فقط، يحسون بأنفسهم، يمكنهم إخفاء عار معاناقم الطويلة.

ظلت تمطر طيلة الليل طخات كبيرة من الماء الذى ضرب فوق المدينة، وفى الأحياء الشعبية فإن الماء يصبح وحلا، ويسد الطرق والعطفات على الفقراء الذين تحل بهم أضرار بالغة الجسامة بما فيه الكفاية. حبست رياح عنيفة السكان فوق أسطح الأكواخ الآيلة للسقوط، وجعلت الأكواخ تنهار، ونزعت أحبال الغسيل. وفى منزل سى خليل الملعون، استيقظ السكان عند الفجر، وخرجوا إلى الحوش ليفترشوا متاعهم العتيق الذى افسده المطر. وأمام السماء المكفهرة، وهذه

الشمس الغريبة، ظلوا يرتعدون شاحبين لم يصدقوا وعود المستقبل المزيفة.

وقف سوكة فى الحوش، مسندا ظهره على الحائط الناتىء. مر بصيص من أشعة الشمس عبر فتحات السقف. بدا الشاب كأنه لم ينم الليل. حاول أن يجفف جلبابه الذى لم يكن سوى قطعة من الخرق المبللة القذرة. كان قد فوجىء بالمطر وهو عائد من المقهى حيث ظل يغنى حتى الواحدة صباحا. ثم نام بجلبابه المبلل، فلم يكن لديه شىء آخر يلبسه. كانت النتيجة أنه استيقظ مريضا وقد احتقنت حنجرته أحس بصوته يجش بشكل مرعب. كيف يمكنه أن يغنى بصوت كهذا؟ لم يكن سوكة فى حال يسمح له بالمواساة.

بدت الشمس الشاحبة التى انسابت فى الحوش كأنها منطلقة من الاشراق المقيدة. وفيما وراء هذه المنطقة، امتلأ الحوش ببرك المياه التى عليها وضعت الامتعة العتيقة. وانبعثت رائحة الطين والعفن من الأرض الموحلة. وسمع صراخ ابن رشوان قاسم الصغير، الذى يستيقظ كل صباح وهو يصرخ. نظر سوكة إلى النساء اللاتى حرجن امتعتهن القديمة النصف جافة. وكل ما رآه بدا له متفقا مع حلمه. شك فى هذه الحقيقة الغريبة، التى تطارده بلا توقف، وتعمل فيه بكل قوة. فأشعة الشمس تفصله عن بقية الحوش.

فجأة، دفع عبد العال الباب الداخلى، وهو يمسك فى يديه حاشية ضخمة. تقدم وهو يترنح بين البرك، ثم وضع الحاشية فوق منضدة شحاتة النجار. ونطق بصوت قوى:

– إنها القيامة.

قال سوكة:

– مازالت القيامة بعيدة. وهذا يصيبنى باليأس. تعال كى نتدفأ قليلا تحت الشمس.

اقترب عبد العال من المغنى وظل واقفا قريبا منه تحت الشمس. انه رجل فى ريعان الشباب، ذو كفين جامدتين ومشعرتين، يرتدى دائما أسماله القديمة ويعقدها حول عنقه.

قال شاكيا: الغرفة كلها غارقة. كأنها بحر بلا نهاية. وعلينا أن نسكن فى الشارع.

قال سوكة:

– يبدو أنك تلقى نكتة. يا الله! الخطر فى الشارع أقل من هنا.

– كيف تخرج من هذا! آه لو كان معى الحمار..

قال سوكة: وأنا بح صوتى. هذه هى نتيجة المطر الشديد.

قال عبد العال متنهدا:

– أنظر إلى هذه العربة. إنها تحطم قلبى.

استولت على عبد العال كآبة سوداء. وفى كل مرة يفكر فى عربته يتذكر الزمن الذى كان فيه. حين كان يكسب لقمة عيشه وحياته بشرف. لأن العربة كانت كرجل شريف شغال. بقسوة هذا الفر اغ القهرى الذى يقتل روحه. لم يترك نفسه تستسلم لغضب قدرى. فهو لا يشبه رفاقه الأوغاد الاقذار. لقد حاول أن يحلل الاسباب المادية التى عجلت بدماره. وحرك الأفكار بطريقة معقدة. مما سمم دمه. وهكذا فهو لا يُرجع مأساته الحالية إلى القدر الاعمى. ولكن إلى قلة الوعى. وجنون الناس.

بدأت الاحداث كأنها أمر تافه، ولكنها انتكست بسرعة داخل مأساة. فإن بيع الحمار لم يأت الا بعد سلسلة طويلة من المشاكل، أولا هناك الرجل الذى أخذ منه عبد العال قطعة النقود المزيفة. حمل عبد العال، لحساب هذا الرجل، الكثير من البضائع حتى محطة القاهرة الرئيسية. ودفع له الرجل بقطعة معدنية جديدة من فئة العشرين قرشا. وطلب منه أن يحتفظ بالباقى. شكره عبد العال ثم ذهب وهو فى قمة السعادة. دون أن يحاول أن يفهم. وفى ضاحية باب الحديد. راودته فكرة أن يشترى علبة سجائر. طالما ان الحظ قد ابتسم له. وهكذا بدأت فصول المأساة. فقد أمسك بائع السجائر بقطعة العشرين قرشا وراح يختبرها فوق رخام منضدته. ثم ألقاها باهمال وهو يؤكد أنها مزيفة، ولكن هناك شيئا مزيفا فى عينيه. أحس عبد العال بالغضب بشدة لإثبات

براءته. وأسرع نحوه وتأهب لضربه. لكن الآخر لم يتركه يفعل. ونادى الشرطى. ومع الشرطى كانت نهاية كل سبل العدالة، فقد جر عبد العال إلى قسم الشرطة، بتهمة صك واستعمال نقود مزيفة. واستغرقت اجراءات محاكمته شهرين طويلين. وبعد ذلك أعلنت براءة عبد العال، وأطلق سراحه. ولكن فى أثناء ذلك عاشت امرأته وابناؤه فترة قاسية من الحرمان. دفعهم إلى بيع الحمار.

حول هذه الفترة من حياة عبد العال بدأ فى البحث عن الأسباب الحقيقية لمأساته. قال بمرارة:

– كان كل هذا بسبب غباء شرطى.

قال سوكة:

– ألم تنس هذه القصة بعد؟

– كيف أنساها! هل أعيش على العراء والأغانى مثلك؟ فلدىّ أسرة علىّ ان اطعمها، وهذا الذى أكلمك عنه. آه لو سقط بين يدى..

كلما استطاع عبد العال أن يذكر ذلك الشرطى تنتابه الرغبة أن يقتله. وبعد أشهر لم يتمكن من نسيان وجهه. فهو يتذكره فى أدق ملامحه الجسمانية، وملابسه. حقا إن رجلا من هذا الطراز. لا يمكنه أن يفعل أفضل مما فعل. يصل إلى مكان الحادث. امسك الشىء من عرقوبه. ونظر إلى تلك القطعة ذات العشرين قرشا، ثم أشار بها إلى الحوذى وردد هذه العبارة: "هذه القطعة مزيفة، أين صنعتها يا لص؟ صاح عبد العال وقد

فقد السيطرة على نفسه: "صنعتها عند أمك. أيها الشرطى الكلب" وعلى أثر هذه الاجابة، تطوع بعض المارة لمساندة الشرطى، وسحبوا عبد العال إلى قسم الشرطة. ردد عبد العال:

– لا يوجد سواه. وهناك أيضا هذا القاضى الملعون:

– آه! نعم، ماذا فعل هذا أيضا؟

– انه هو يا أخى سوكة. لقد قال لى لتوه: "اذن، فأنت، يا عزيزى الذى تصنع النقود المزيفة؟" وكأنه كان يعرف أمى.

– يا له من رجل! ألم ترد عليه؟

– أجبته أننى لو صنعت النقود المزيفة، يا سعادة البيه، لكنت يوما ما وزيرا محترما وليس حوذيا بائسا. أقلقه هذا الأمر ولكنه لم يقتنع به كلية، لأنه سألنى آنذاك: "ولماذا يا عزيزى تود أن تكون وزيرا؟" أجبته: "لأنه يا سعادة البيه سيكون لدى الكثير من النقود. كما تعرف لم يعاملنى كمجرم، ولكن كمتشرد وكحشاش.

قال سوكة:

– حشاش! يا الهى! أنت لا تتعاطى الحشيش أبدا.

– فعلا، لكنك لاحظت، يا أخى سوكة، أنه عندما لا يفهم الناس كلامك الذى تقوله لهم. يعاملونك كحشاش.

قال سوكة:

– أجل. لقد لاحظت ذلك دوما. فالعالم مليء بالأغبياء.

ظلا ساكنين تحت الشمس الشاحبة. وحولهما اطلال خلفتها العاصفة. تخللهما دفء رائع، أحسا برضاء خفى فى هذا البرد القارس الذى يحتفظون بذكراه فى أجسادهم، يمكن للعالم أن ينهار ويمكن للعالم أن يتعفن، ولكنهما لن يتحركا، هذا الدفء الرقيق يجعل الحياة أقل براءة ويبدو كأنه يمهد الطريق لوجود أفضل. فى الخارج، فى العطفة، لعب الأطفال فى البرك التى صنعها المطر، أغلق سوكة عينيه، وأحس بأن النوم يثقل عليه بظله، أما شحاتة النجار فقد تقدم فى الحوش وبدأ يعمل فى صمت وهو يعض على نواجذه من الجوع.

فجأة، مزق الهواء صوت سعال جاف جلجل المنزل، فتح سوكة عينيه، وانتابه شعور حاد، إنه يعرف هذا السعال القادم من شقة الزبال، انها الشابة ناهد التى تبصق دمها، اهتز سوكة بعنف لهذا السعال الذى يحزن القلب، الذى دوى طويلا فى الهواء ثم بدأ يغزو العالم، وقال:

– سوف يقتل هذا الزبال الملعون امرأته، إنها شديدة المرض، سوف تموت فعلا لو بقت محبوسة هكذا.

قال عبد العال:

– ماذا يمكنك أن تفعل؟ دعها تموت، أنا أحتقر هذا الزبال ورؤيته تسبب لى الغثيان.

قال سوكة: وأنا أيضا، ولكن امرأته شابة جميلة، كأنها زهرة سقطت فى مدخنة، قل لى يا عبد العال، كيف أمكنها أن تتزوج زبالا؟

قال عبد العال:

– بسيطة للغاية فهذا الزبال، مثلما نقول، يكسب بشكل منتظم، وهذا يكفى كى تتزوج، حتى لو كانت إبنة باشا، ألا تعرف هذا؟ ليس أمامها سوى القذارة التى تجد فيها خبزها.

قال سوكة:

– على أى حال، فهذه الفتاة ليس إبنة باشا ولكنها إبنة قواد شهير، باع ابنته لهذا الزبال العجوز! يا لها من حكاية! هل يمكنك يا عبد العال أن تكون زبالا؟

– يا لك من مغن ملعون! هل هناك بؤس بعد هذا الذى حدث لنا، ماذا تنتظر أنت كى تصبح زبالا، إنها أحسن مهنة، ربما أمكنك أن تصبح يوما صاحب بيت مثل هذا، هه. سوف أصعد لرؤية زوجتى، فهذه العاهرة قادرة أن تفعل كل شىء.

وبينما صعد عبد العال إلى مسكنه، اقترب سوكة من النجار، كان جادا فى معرفة كيف يفكر فى موضوع البيت.

– السلام عليك، يا عم شحاتة!

نظر إليه الآخر لحظة دون أن يرد، بدت عيناه اللامعتان حائرتين تحت أشواك أهدابه، وعبر فتحة ياقته، رأى جسده النحيل فقال:

– السلام عليك يا بنى!

قل لى ياعم شحاتة، ما رأيك فى الموقف؟

– أى موقف يا بنى؟

خفت حدة صوته بالقدر الذى يتكلم به، كأنه من عالم بعيد، حيث المأساة ضخمة ولا علاج لها.

قال سوكة: كيف، ألا تعرف أن المترل سوف ينهار؟

قال شحاتة:

– أجل أعرف ولكن ماذا يمكن أن أفعل؟

سأله سوكة: ألست خائفا؟

بدا وجه النجار مشرقا فجأة، ولمعت فى عنيه شعلة من الأمل المجنون، فأجاب بصوت ضعيف، وخائر اخترق العالم، عالم الجوعى الذى ينتمى إليه:

– على العكس يابنى، فمنذ أن عرفت أنه سينهار وأنا لست خائفا، ففيما قبل كان هناك العديد من المآسى تلاحقنى، ولكن الآن، لا

توجد سوى مأساة واحدة، إنها أقل صعوبة فى مواجهتها، إن مأساة واحدة لأمر رائع، ففيها سيحل الموت.

سكت ثم زفر بقوة، وأمام هذا اليقين الدامى، بدا كأنه يتحرك فى حياة جديدة، قال سوكة:

– أنت على حق، فعلا، الآن هناك مأساة واحدة فقط تهددنا، ولكنها مأساة كبيرة.

(6)

فى ظهيرة ذلك اليوم، وصل سى خليل فى صحبة المهندس، لم ينتظره أحد بالفعل، واندهش الجميع لظهوره، ولكن عندما شاهدوا المهندس، سرعان ما فهموا المناورة، فى الحقيقة فإن هذا المهندس المزعوم ليس لديه ما يدل على وظيفته، أصاب النساء ذهولا خاصة عند رؤية المهندس الذى لم يتعد العشرين من العمر، يرتدى بنطالا ملونا بلون الخشب الوردى، على طريقة الشارلستون، وسترة بنية اللون لها جيب أحمر فاقع، لم تستطع زوجة بيومى أن تمنع نفسها من التعليق:

– هل هو مهندس أو راقص ذلك الذى أحضرته لنا ياسى خليل؟

– إنه مهندس، يا برابرة! قلت لكم أنه مهندس، وحاصل على شهادات وقد رأيتها.

ألحت زكية:

– ربما أنك رأيت شيئا آخر.

قال عبد العال:

– اسكتى يا امرأة، لنرى ماذا ستقوله هذه الشخصية الكبيرة الحاصلة على شهادات.

تكلم الجميع معا، واقترب من الشاب وأمسكه بذراعه:

– تفرج واجعلنا نستفيد من معرفتك يا مهندس، لاشك أنك درست فى أوروبا؟

بدا المهندس المزعوم ممتنا للغاية، راح يلعن فى قرارة نفسه، أنه تتبع سى خليل فى هذه المغامرة المشكوك فيها، شاب ذو ملامح دقيقة خجولة ونسائية، ويبدو عليه أنه لم يعتد مثل تلك الأمور المشبوهة، لقد أخفى عنه سى خليل بعض التفاصيل، وهو يطرح المهمة التى عليه القيام بها، وتصرف بشكل طبيعى، فكر أن الأمر بسيط، الآن استطاع أن يفهم الموقف الحقيقى.

حاول سى خليل، وهو يرى خيبته، أن يساعده:

– اتركه يا رجل، هل هذا أسلوب للتصرف مع رجل متعلم! كيف تريده أن يفهم الأمر؟ أتركه يتفرج ويفكر.

لكن رشوان قاسم تدخل، وقال:

– أنا أريد أن أرى شهادات هذا الصائع.

قال سى خليل:

– بشرفى، أنت مجنون! هل تعتقد أن المهندسين يتجولون وشهاداتهم تحت أذرعهم؟

أكمل رشوان قاسم، وقد بدا أكثر صلابة مما قبل:

– أعرف ما أعنى، ليرينا شهاداته.

قاطعه سى خليل:

– أنت لا تعرف شيئا، أنا أرى يا رجل، انك تتصور هذا المترل وابور جاز لكن الأمر يختلف، يمكن أن تصدقنى.

– وأنا أخبرك أيها البائس سى خليل أن تصليح وابور الجاز أسهل من إصلاح هذا البيت المتداعى.

قال سى خليل وهو يكاد أن يفقد بصره:

– إذن اصلح بنفسك هذا البيت و"يادار ما دخلك شر".

اقترب بيومى بدوره من المهندس المزعوم:

– لتتكلم ولا تسخر منا، وحياة أمك.

ومرة أخرى أحس الشاب بالخطر يحدق به، وتردد فى أن ينطق كلمة، وأمام هذه الوجوه المتحفزة أحس بأنه قد ضاع تماما، لن يسعفه سى خليل، أراد أن يؤدى مهمته حتى آخرها، ومن جديد، حاول أن يخلص الشاب من ارتباكه:

– أخبرونى يا ناس، هل تريدون، أن تسمعوا رأى هذا الرجل الكفء؟ نعم أم لا؟ إذا كان لا، فيمكننا أن نذهب حالا، وإذا كان نعم فدعوه يعمل، وسوف أدفع له الأتعاب.

قال عبد العال بلهجة مصالحة:

– أنت على حق تماما، د ع هذا الشاب يعمل.

وساد المكان صمت تام، تركوا الشاب يعمل بهدوء، ووجد نفسه أمام تهديد من نوع أشد إثارة، أغلق عينيه من الخوف، ولكنه عاد يفتحهما ثانية وبدأ يحسب ويقدر ويفكر واستغرق هذا بعض الوقت.

تذرع سى خليل بالصبر، فهذا اليوم يمثل بالنسبة له الكثير من الأسى، فقد اتسخ حذائه الجلدى الأصفر الجميل، واتسخ طرف جلبابه بالوحل، من ناحية أخرى، خشى أن يصاب بالبرد فبقى واقفا فى برك المياه التى تغطى أرض الحوش، قال:

– لا تضيع وقتنا! أخبرهم برأيك وأن كل شىء على ما يرام.

قالت أصوات متعددة:

– نحن ننتظر.

تعجل الشاب التنفيذ، ونطق كأنه لُقن الدرس:

– لا يوجد خطر بالمرة، ليس هذا هو الأمر الجسيم الذى دفعنى للحضور.

سأل عبد العال: ماذا تقول؟

تمتم الشاب من جديد:

– لا شيء يخشى منه، فالمترل جامد ولن ينهار لا اليوم ولا غدا.

تساءل سليمان العبيط: إذن متى سينهار؟

– أقسم لكم بشرفى أنه لن ينهار أبدا.

قال عبد العال: أنت شاب متعلم جدا، يبدو هذا على وجهك.

قال سى خليل، الذى صدق أن الحكاية انتهت، وأن عليه ألا ينتظر لحظة، وأن يذهب:

– الآن هيا بنا.

قال عبد العال:

– "بدرى" فلم نبدأ بعد، طالما أن المهندس بيننا، فلابد أن ننتهز هذه الفرصة ليتجول داخل البيت، فأنا واثق أن هناك شيئا فريدا، ومفيدا للغاية، لموهبته كمهندس.

بالتأكيد، كانت لدى الحوذى فكرة فى رأسه، حين دعا المهندس للدخول إلى المترل، لكن سى خليل لم يكن مطمئنا بالمرة فقال:

– ليس عندى وقت، هل تعتقد أنه ليس لدىّ شىء أعمله سواكم؟ لقد تأكدتم الآن، فدعونى أذهب، أيها الناس.

ولكن هذه الأسباب الواهية المختلفة، لم تخدع أحدا، فقد ألح عبد العال وراح يبين طريق السلم لسى خليل.

ارتقى سى خليل درجات السلم، مستسلما وغاضبا، وهو يفكر فى طريقة للنتقام وأحس بالأسف لمناورته غير الملموسة، حقا لقد فكر بشكل سيئ، عندما انتابته الفكرة السخيفة أن يأتى بهذا المهندس المزعوم، الآن فالوقت متأخر للهروب من فخ هذه العصابة فهم بلا شك يعدون له بعض المفاجآت على طريقتهم، فهو لم ينس اختطاف طربوشه، الآن لم يعد هذا الطربوش يساوى شيئا، وعليه أن يشترى واحدا آخر.

وبينما هو يستعد لمواجهة أى موقف مباغت، أرتقى سى خليل درجات السلم، وراح يأخذ حذره، فهذا السلم وحده حكاية بأكملها، فهو يهتز فى بدايته فوق لوح خشبى متأرجح، ثم توقف لحسن الحظ شيئا فشيئا عن الاهتزاز، سببت درجاته له دورانا فارتعد وأصابه الشحوب، وضع يده على قلبه كى يهدىء من دقاته، تنفس بصعوبة، بينما تحرك المهندس المزعوم خلفه، أحس باليأس التام، تابع سى خليل، كأنه فى حلم، كأنه يصعد نحو مناطق مميتة، لم يجرؤ أن يستدير بسبب السكان الذين يدفعونه حثيثا، أخيرا، وفى الطابق الأول، توقفوا جميعا أمام شقة الحوذى.

رمش عبد العال، بعمق، وقال لصاحب البيت:

– شرفنى بالدخول.

كانت شقة الحوذى تتكون من غرفة كبيرة ومن ملحق صغير مظلم ومترب، مليء بالأسمال وبالمفارش ومقعد ملقى على الأرض بين بقايا حريق، وفى ركن توجد قلة فارغة، مائلة على موقد غاز، لقد أغرق المطر بعض أركان الغرفة، وقد انسل ضوء النهار من المشربية القديمة، مكسبا كل هذا الديكور منظرا قفرا وخربا.

تردد سى خليل عند العتبة لحظة، ثم دخل الغرفة، وأسرع الجميع خلفه، أمسك عبد العال بالمهندس الشاب من ذراعه، وأشار إلى السقف وقال: أنظر، وأحكم عليه.

رفع الشاب رأسه وتصور للحظة أنه سوف يغمى عليه، ففى كل ركن من هذا المنزل الغريب، تصيبه صدمة قلبية، فهذا السقف يشبه حلما مرعبا، لقد انهار تماما فى أحد أركان الغرفة، ولم يعد سكان الدور الأعلى، أى عبد العال وأسرته، يقتربون قط من هذه الناحية، وعليهم التماسك حتى لا يتزلقون.

سأل عبد العال:

– هل سينهار هذا السقف أم لا؟

كان يجب على الشاب أن يقول:

– بالنسبة للسقف، فلا أعرف بالضبط.

قال عبد العال:

– هأنت ترى يا سى خليل، أن هذا المهندس تنقصه أشياء كثيرة عليه أن يتعلمها.

لم ينتظر سى خليل هذا، فإذا كان الحوذى قد أراد أن يخيفه، فقد نجح كثيرا، فهذا السقف لم يكن شيئا يشار إليه، حيث رغم سى خليل أن قلبه مزخوما بالرعب وقال لاهثا:

– هذا يكفى، ليس لدىّ وقت أضيعه.

قال عبد العال:

– الأمر لم ينته، فلدى أيضا أشياء أكثر كى أريها لهذا الشاب، دعه.

قال بيومى: ليأتى ويرى قليلا ما يحدث عندى، لعل هذا يفتح له عينيه.

ردد عبد العال:

– إنها فكرة جميلة جدا، لنذهب ونزور شقة بيومى.

عبروا ممرا طويلا كريه الرائحة، مليئا بخيوط العنكبوت، وقطع المحار، وطوب أحمر سقط كاملا من جدران المنزل.

وبنفس مشاعر الخوف دخل سى خليل والمهندس شقة لاعب القرود، كان هناك شيء آخر، فشقة بيومى تبدو كأنها كهف، بدا ضوء النهار من فتحة كبيرة تطل على العطفة، لم يبق أى شيء من المشربية القديمة، فبيومى تقريبا يعيش فى العراء، مع فتحة أخرى تطل على خرابة المترل المجاور، هناك أيضا "خُن" صغير له باب على السلم تستخدمه الحيوانات.

جاهد سى خليل، وقد أصابه الجنون من هذا الخراب الشامل، حاول أن يظل هادىء الأعصاب، لم يكن فى أقصى حالات الألم، انغمس فى أفكاره المليئة بالمكر، وفجأة انتشرت رائحة القرود والماعز فى الغرفة فصاح:

– هل هذا بيت أم حديقة حيوان؟ بشرفى أنت تبالغ يا رجل؟

قال بيومى:

– هذه الحيوانات أقل ضررا منك.

– ماذا تقول أيها البائس؟ أنت تشتمنى؟

ومن جانبه، هاجم عبد العال المهندس:

– ماذا تقول عن هذا أيها الشاب؟

أحس الشاب بحال مرضية من الاشمئزاز، لم يع شيئا، ولم يرد على سؤال الحوذى.

قال س خليل:

– حيواناتك هى المسئولة عن كل هذا التلف، أحمد ربنا أننى لم أبلغ البوليس.

صرخت زكية: البوليس، أتريد أن تحبسنا، يا مجرم؟

قال سى خليل بهدوء وهو يوجه كلامه للشاب:

– هيا بنا.

قال عبد العال:

– أتركه يفحص، فلن تكون لديه فرصة أفضل للتعلم مثلما فى هذا المترل.

صاح رشوان قاسم:

– أريد أن أرى شهاداته، ليرينا شهاداته، وإلا خنقناه.

تراجع الشاب أمام هذا التهديد الأكيد، وأحس بالألم أكثر فأكثر، واقترب من سى خليل وهمس فى أذنه أنه يود أن يذهب.

قال سى خليل: كن هادئا..

ثم نزل الحوش تلاحقه صراخات وعويل النساء.

وفى الفناء، لاحظ أن دراجته ليست فى مكانها، فجرى نحو العطفة ورأى مشهدا أثار خوفه، فقد أمسك الصغار بالدراجة، وركبها العديد منهم، ثم نزلوا المنحدر وسقطوا بها فى الوحل.

(7)

فى عطفة السبع بنات، يتفنن الناس فى التنبؤ باليوم، وأيضا الساعة التى ستحل فيها الكارثة، هؤلاء الجيران النبهاء دائما يرصدون أى ألم يأتى من أى جانب، يعيشون فى انتظار هذا الانهيار المأساوى ولا ينشغلون بشىء عداه. ارسلوا الأطفال إلى الضواحى، وقد أخذوا كل شىء فى حسابهم، أما الحريصون منهم فلم يشاءوا أن يزعجوا أنفسهم، حقا أن بعض الداعرات المذعورات، والمتباكيات يخشين أن يكن من ضحايا المستقبل ويرتعبن دائما من هذا اليأس الظاهر والمتضخم. أما بالنسبة للسكان. فبعد صدمة المهندس، لم ينتظروا أى مساعدة من هذا الكلب سى خليل. وحاولوا أن يجدوا بأنفسهم بعض الحلول الكافية. وفى لحظة ما. لم يفكروا مطلقا فى ترك المنزل. لأن النقود التى تستلزم "العزال" غير موجودة فضلا عن المتاعب المتراكمة الناتجة عن البحث عن كوخ. لقد تأخروا فى دفع الأجرة وعليهم تسوية الأمر مع خليل، الذى وضع هذا الأمر فى حسبانه.

فى هذا الجو الخانق تماما. كانت لرشوان قاسم فكرة، فكرة جالت بباله فجأة، خطر له أن يحاول تعقيد الأمور، فقد أراد مصلح وابور الجاز أن يبلغ الأمر للسلطات. اعتقد أن هذا أمر عبقرى. وتصرف كأنه واحد من المخترعين. أما اتهامات سى خليل فى موضوع الحيوانات، فقد جعلته يلتزم الحذر، فهو لا يريد أن يصل الأمر إلى الشرطة. وأن الشرطة سوف

تصدق سى خليل، لأنه قبل كل شيء المالك، لكن النساء أردن أن يثرن فضيحة بأى ثمن، وعندما فكرن فى أن يأتى رجال الشرطة إلى البيت، فسوف يثير القيل والقال على الشفاه، وأخيرا وبعد عناء ضائع، توصل الجميع إلى عدم ابلاغ السلطات مباشرة، ولكن بطريقة أخرى، بمعنى كتابة خطاب للحكومة، رغم أن هذا سيطرح سؤالا لمعرفة من كتب الخطاب.

وجه عبد العال لرشوان قاسم هذه العبارات:

– إذن يا أخى قاسم، إظهر لنا قدراتك واكتب لنا الخطاب.

ولكن رشوان قاسم أخذه لأعلى وقال له:

– لست كاتبا عموميا، ولكنى عامل ميكانيكى، اذهب واحضر أفنديا غلبانا لكى يكتب هذا الخطاب، هل تتصورنى واحد منهم. أنتم لم تنظروا إلى أيها الناس.

ظل عبد العال ممتقعا، وأجاب بلهجة باردة:

– معذرة، فأنا أعاملك كرجل، ولكن يبدو أنك شخص ملعون.

رد رشوان قاسم:

– لم أزعم أبدا أننى كاتب، أنا عامل ميكانيكى أستطيع أن أصلح قاطرة، إذا كان لديك واحدة أحضرها لى ولسوف أصلحها لك، ولكن بالنسبة لكتابة الخطابات، فأنت رجل مثلى.

صرخ عبد العال: ليست لدى قاطرة كى أحضرها لك، وتأكد أنه لو كانت معى واحدة كنت قد أحضرتها لك كى تدهسك.

هذه الدعابة الساذجة لم تقدم شيئا فى الأمر الذى ظل فى الوحل، وعندما هل الصباح شوهد رجل يدخل من الباب الضخم، إنه أحمد صفا الأفاق، سائق الترام السابق.

دخل هذا الحشاش العتيق الحوش بشكل اثار الاشمئزاز، وأذهل الحاضرين حين اقترح عليهم أن يشتروا منه قطعتين يحملهما بين ذراعيه، وتموءان بأنين كأنهما تودان العودة لأمهما، وجه كلامه إلى نفيسة فى أول الأمر:

– ألا تريدين أن يشترى منى واحد يا امرأة لن تكلفك سوى قرش، كأنك تأخذينها بلا مقابل.

صاحت نفيسة: أبعد عن هنا يا حشاش وإلا بطحتك فى رأسك وحياة ربنا.

– لماذا تغضبين؟ بشرفى إنها حيوانات لطيفة جدا، فهى تأكل الفئران وتؤدى الكثير من الخدمات، أيها الناس الطيبون هيا اشتروا هذه القطة.

ظهر أحمد صفا هذا الصباح، كبائع قطط، ذلك الحشاش العتيق إنه يلم النقود من أجل أن يقيم أوده، طُرد سائق الترام السابق من وظيفته لأسباب بالغة الخطورة، وشديدة الغرابة، فهو لم يكن يقود ترامه إلا بعد

أن يتعاطى قطعة حشيش، فيسلم نفسه لنزوات منحرفة، وكان أقل شىء هو ألا يتوقف فى المحطات الرسمية، إلا على مزاجه، وحسب ظروف الطريق، كان يمرق كالعاصفة فى الشوارع المأهولة بالسكان، فيبذر الرعب فى طريقه، وذات مرة أوقف عربته، ودخل احدى الغرز القريبة، وترك الركاب مرعوبين وهم يتندرون، فتم رفته منذ عامين أثر حادث قام فيه بسباق مع سيارة مسرعة.

كان أحمد صفا يسكن عطفة السبع بنات، فى نفس المكان الذى يسكنه الجميع، من ناحية أخرى فقد عرف أنه يبيع كل الأشياء التى معه بطريقة أو بأخرى، ولا يفكر أحد فى بيعها، تلك الأشياء التى نهبها من سكان الحى، والتى ظل يتتبعها مسافة عشرة كيلومترات فى دائرته، فى هذا الصباح، وجد على باب كوخه هاتين القطتين الصغيرتين، فسلبهما من أمهما ولديه النية أن يبيعهما.

– ألا يريد أحد أن يشترى قطة؟ الواحدة بقرش، يا ناس ياطيبين! يا الهى! ياله من عمل!!

قال عبد العال:

– ألن تكف عن هذه الألاعيب، يا رجل أنت تتصورنا أغبياء.

قال صفا:

– ليحفظنى الله أنتم حكمة الحى ونوره وأنا أردد هذا دوما، فقط أيها الناس الطيبون فأنا لم أدخن منذ البارحة، وأصبحت حالتى مثيرة للشفقة.

قال سليمان العبيط:

– ليست حالتك أشد من حالتنا فنحن مثلما ترى ننتظر ساعتنا الأخيرة.

أخافت لهدة بائع الشمام المريرة أحمد صفا الذى تصور أنه قد وقع فى قلب مؤامرة فقال:

– لماذا أنت غاضب، افترض أننى لم أقل شيئا، سوف أبيع هذه القطط فى مكان آخر.

وتبعا لأسلوبه فى الحياة، فإن أحمد صفا لم يكن يضع شيئا فى حسابه من أحداث الحى التافهة التى لا تهمه إلا نذرا، وهدفه الوحيد هو النقود التى يصرفها لشراء المخدرات، وهكذا، فهو يجهل كل الكارثة التى تتهددهم. معتقدا أنه اختار الوقت خطأ، فقد استعد ماتاعا للاختفاء، فجأة ظهر بيومى وهو يضع قرده على كتفه.

– هل أنت هنا يا ابن الزانية؟

قال صفا: سوف أذهب، ليس علىّ سوى أن أذهب.

هذا ما أراده لاعب القرود من أحمد صفا، بسبب حكاية قديمة، مؤثرة، ومن الصعب نسيانها، فذات يوم اختفى قرد بيومى دون أن يعرف اين هو، بحث عنه بيومى فى كل مكان واكتشف أخيرا أن أحمد صفا يخفيه بمهارة متحينا فرصة لبيعه. وعند رؤية أحمد صفا، أسرع القرد نحو الأرض، وراح يؤدى الحركات البهلوانية، أخذ يقفز حول الحشاش، ولم ينس مضيفه لبضعة أيام، جاء يحيه وحاول أحمد صفا أن يداعبه خلسة، ولكن عند هذا الحد زمجر بيومى:

– دع قردى في حاله يا رجل، يا قليل الادب.

قال صفا: لا شئ، أنا فقط أداعبه.

– والمرة السابقة، هل أخذته لتداعبه؟

– نعم، كى أداعبه، أحب هذا القرد كثيرا، إنه ذكي للغاية.

بدأ أحمد صفا فى الاحساس بالضيق من هذه الألاعيب المجنونة، بينما ظل سوكة فى مكانه دون أن يتكلم، صاح كأنه المنتصر:

– يا إلهى! لقد وجدت من يكتب لنا الخطاب.

سأل عبد العال: من؟

– حسنا! إنه هذا الحشاش الملعون، ما رأيك؟

– بشرفى أنت مجنون، لكن هل يعرف الكتابة؟

قال سوكة: أعتقد نعم، على كل حال أعرف أن المرأة العجوز ست أم حسن قد كلفته ذات مرة، منذ وقت طويل، أن يكتب خطابا لابنها، أليس هذا صحيح يا رجل؟

نظر الحوذى إلى أحمد صفا متشككا كى يحاول أن يرى فيه العلامات المميزة الدالة على ثقافته، رآه ينطق ببعض التعبيرات الخاصة، وعقب ملاحظة لاعب القرود، بدا متحفظا جدا، تمتم صفا متظاهرا بالتواضع:

– أجل أعرف الكتابة، وأيضا القراءة.

– لماذا لم تقل هذا منذ الصباح؟

– ولماذا أضطر لقوله؟

– لأننا فى حاجة لشخص يكتب لنا خطابا.

علق أحمد صفا: خطاب، أى حاجة تدفعكم ايها الناس، لكتابة خطاب؟

قال عبد العال:

– نحن نريد أن نكتب خطابا للحكومة، وطالما أنك هنا وأنك تعرف الكتابة فأنت الذى ستكتبه.

وعند ذكر الحكومة ارتعد أحمد صفا الحشاش بشدة فمثل هذه المهمة تبدو له مأساة شديدة السخرية.

تمتم: رسالة للحكومة، ولماذا؟

علق بيومى الذى لم يستطع أن ينسى اختطاف القرد:

– كى نطلب منها أن تشنقك.

هذه اللغة المشئومة نزلت كالصاعقة فوق روح أحمد صفا الذى ود أن يهرب، ولكن عبد العال أوقفه فى الوقت المناسب، وبدأ يشرح له الأمر، من البداية للنهاية.

قال محددا:

– أنت ترى أن الأمر سهل للغاية، قدم لنا هذه الخدمة الصغيرة يا أخ صفا.

ورغم أن أحمد يعرف الكتابة والقراءة مثلما قال، لكنه من الصعب أن يبذل أقل مجهود فى هذا المضمار، فكيانه "كصايع وحشاش" يمنعه من الدخول فى كل الأمور ذات الصبغة العقلية، ولكنه الآن ليس لديه الخيار، ودون أن يملك حق الموافقة فى الموقف الذى وضع فيه، حاول أن يجد فيه شيئا مفيدا فقال:

– فى الواقع، من المتعذر بالنسبة لى فى هذه اللحظة أن أكتب خطابا.

سأل عبد العال:

– لماذا؟

رد صفا: حقيقة، لا أستطيع، لست قادرا على كتابة خطاب للحكومة! بمعنى أن أقل خطأ فى الأسلوب، يمكن أن يقودنى إلى المشنقة، لا، يا الله! إنظروا إلى يا اخوانى، وأخبرونى إذا كنت أصلح لكتابة خطاب.

تفحصه الجميع فى صمت، سأل عبد العال:

– ماذا ينقصك؟

قال صفا: ما ينقصنى، يا أخ عبد العال، هو جوزة مشتعلة جيدا، واحدة فقط، وبعد ذلك سأكون قادرا على كل شئ، حتى ولو زوجونى أمى.

– وكم يلزمك لهذا؟

قال صفا: قرشان، ليس أكثر من قرشين، فأنا شخص قنوع.

بدا عبد العال كأنه يفكر، وينظر فى أمر هذا الحشاش، لكن كيف يدبر القرشين؟ يجب أن يكتب هذا الخطاب مهما كانت التكلفة، راح يوجه كلامه إلى الآخرين:

– طالما أن هذا الحشاش الملعون لا يمكن أن يكتب قبل أن يتعاطى مخدراته، فيجب أن نتدبر كى نجد له القرشين، فليتقدم كل واحد حسب مقدرته المالية.

دبروا المبلغ، مليم فوق مليم، بصعوبة شديدة، صعد رشوان قاسم إلى مسكنه كى يحضر ثلاثة مليمات، عاد بها قائلا:

– أخاف ألا يعود ابن الكلب هذا، فأنا أعرف هذا النوع من الحشاشين.

بدت الفكرة عاقلة لكل الناس، عدا أحمد صفا، الذى أطلق وعوده، قائلا أنه لن يتأخر أكثر من خمس دقائق، وأن الغرزة التى سيتجه إليها قريبة جدا، ثم طلب، من ناحية أخرى، ورق خطابات وقلم كوبيا، وبدأ فى اصدار أوامره.

– سأغيب بالضبط مسافة الزمن الذى تبحثون فيه عن كل هذا.

تدخل رشوان قاسم من جديد:

– يجب أن يصحبه واحد منا.

تقدم سليمان العبيط والذى أراد أن يحصل على بعض الجزاء:

– سوف أرافقه بكل سرور.

اعترض عبد العال:

– أنت حشاش مثله، ومع ذلك أذهب وخذ حذرك من ابن الكلب هذا، فلو هرب منك فلتعرف أنه ستحدث مأساة.

لكن هذا الحل لم يعجب زوجة سليمان العبيط، التى اعتقدت أنهم يريدون زوجها، فصاحت:

– أين سترسلون زوجى، لا تصاحب هذا الحرامى، يا سليمان، وإلا سيكون يوما أسود عليك.

قال سليمان العبيط وقد انتعش لاحساسه بكونه مهما:

– كونى هادئة يا إمرأة، وهل أنا طفل؟

وقبل أن يرحل، أعطى أحمد صفا قطتيه الصغيرتين لزوجة سليمان العبيط كى تحتفظ بهما، وهو يوصيها أن تعتنى بهما، الأنهما تمثلان كل ثروته، وأطلق العديد من الدعابات من نفس النوعية، لكن نفيسة رمت القطة الصغيرة أرضا وهى تسب غاضبة.

(8)

لم يعد أحمد صفا ورفيقه الكريم إلا فى صباح اليوم التالى، اتفقا كى يفسرا سبب تأخيرهما، فقد قابلا العديد من المغامرات الغريبة، لكنهما لم يمتلكا القدر المناسب من الخيال الخصب فلم يأخذ أحد قصتهما على محمل الجد.

فى الواقع، فالهما بمجرد مغادرة المترل ليلة الأمس، سحب أحمد صفا بائع الشمام إلى غرزة قريبة، حيث هو زبون دائم، إنها المرة الأولى فى حياة سليمان العبيط التى يدخل مثل هذا المكان، وعلى الفور أخذ بالدخان الكثيف المنتشر فى هذا الكوخ المتداعى ورجال مسترخين فوق الحصر ووسط الزبالة، تظهر وجوههم الحالمة ذوات العيون المذعورة، ظل مشدوها لحظة بهذه الهلوسات الخيالية، وهو يتصرف كرجل ينظر إلى شئ خارج عن المألوف، تشبع بإحساس الخوف، وفى نفس اللحظة كان يتمتع بإحساس الزهو، وهو يعرف أنه يرتكب مغامرة فريدة، جلس أحمد صفا فوق إحدى الحصر، ثم طلب جوزة وتعجل النادل طلبها، وظل سليمان العبيط على مقربة منه، ونسى دوره كمراقب، لم يفكرسوى فى أشياء بعيدة ضائعة فى ضباب كثيف، احس بقلبه يخفق فى صدره وشيئا فشيئا رأى نفسه منجذبا لفضاء فسيح، ملىء بالرفاق. فى الحقيقة بدا له كبحر ضخم يحيطه وإن كل المدخنين الجالسين قبالته، يعومون فوق هذا البحر السحرى، فجأة اختفى شبح أحمد صفا فى الأفق، فوق قمة موجة عالية

واقترح على رفيقه المرتبك، بابتسامة شيطانية أن يتذوق المخدرات، لم يكن سليمان العبيط مستعدا للرفض، فأمسك الجوزة وبدأ فى شد نفس، ثم واحد ثانى، كان التأثير قويا فاسترخى وبدأ فى التقيؤ فى جلباب زبون بدين، صرخ فيه أن يسرع إذا أراد أن يرى الراقصة، وظل هكذا حتى الصباح، فريسة لحالة غثيان مرعبة.

عندما رأت نفيسة زوجها فى مثل هذا الحال من التبلد أطلقت صراخات مدوية، ثم بدأت تنتحب بلا توقف، وكأن سليمان العبيط تقريبا قد مات، راح يدافع عن نفسه فأخذ يكرر:

– لقد تأخرنا فى الترام الذى ضل الطريق.

– أى ترام يا رجل، ليدوسك ترام.

– قلت لك أنه من المستحيل أن نتحرك، كنا هناك ننتظر فإذا براقصة بدينة تهجم علينا، ثم جرتنا إلى حفل زفاف فى مسيرة طويلة، وحولنا كان هناك بحر خضم.

أثارت هذه الأوصاف المهلوسة غضب نفيسة التى سرعان ما أدركت إلى أين وصل زوجها.

– خسارة أنك لم تغرق، يا رجل يادون يا عرة! لم يكن ينقصك سوى أن تدخن الحشيش! لقد أفسدك هذا المجرم.

أحس أحمد صفا بأنه مقصود، فراح يختفى خلف جدار عبد العال الضخم، ولكن الحوذى رفعه من ياقته لأعلى بيده القوية.

– لن تهرب منى، أيها الحشاش القذر هل ستكتب لنا هذا الخطاب أم أخنقك؟

صعد الاثنان إلى شقة عبد العال، وعنده وجد أوراق الخطابات المشتراة فى البارحة والقلم الكوبيا المعار من أم جابر، التى يذهب ابنها إلى المدرسة والذى يعتبرونه حدثا فى الحارة.

ودون أن يضيعا وقتا جلس أحمد صفا فوق كرسى، وأمسك بالورقة والقلم، ثم انتظر أن يُرى وهو يعمل.

بقى سائق الترام القديم لحظة طويلة فى حيرة، وهو لا يعرف كيف يبدأ، فهذه المداخلة فوق امكاناته، جعلته يتنافر فى اللحظة الأخيرة، ثم هناك هذا السقف المنهار من ناحية، ولا ينتظر سوى إشارة كى يفرز ضحاياه، وهكذا تعقد الأمر إلى خطر أكثر مأساة من كتابة خطاب.

فكر أحمد صفا أنه يمكنه أن يحصل على ضمان، فهو يخاطر بحياته، قال:

– أولا، أرجوك أن تسكت أولادك، فأنا أحتاج إلى تركيز وتفكير.

قال بيومى: لماذا تفكر، هل الأمر بالغ الصعوبة؟

وواثقا من أهميته، لم يترك أحمد صفا كى يزجرهم دون أن يتوقع عقابا، فأجاب بجدية:

– أنا أكتب خطابا للحكومة، وأرجوك أن تحمينى، أم هل تعامل كل الناس كأنهم قرودك؟

قال عبد العال:

– ليست هذه حياة، هل نحن هنا كى نثرثر أم لنعمل؟

قال رشوان قاسم: حسب رأيي، فإن هذا الخطاب سوف يسبب لنا الكثير من المتاعب.

تكلم رشوان قاسم بهذه الطريقة لأنه أحس بالغيرة أنهم وجدوا شخصا يكتب الخطاب.

قال أحمد صفا الذى انتهز الفرصة:

– وهذا رأيي، اسمعوا يا ناس إنه نفس السبب الذى نطق به فم هذا الرجل.

قال عبد العال: اسكت، وحاول أن تبدأ حالا.

قال صفا: فقط أريد، بل أرجوك أن تقول لى ماذا تريد أن تكتب للحكومة بالضبط؟

قال عبد العال:

– لو كنت أعرف، ما استعنت بمخبول مثلك، لقد حكيت لك عما يتعلق الأمر، أنت هنا الآن، كى تفتش وتجد، فلا تطرح أسئلة.

قال أحمد صفا:

– حسنا، لقد فهمت.

قال بيومى: ماذا فهمت يا حرامى القرود؟

قرر أحمد صفا أن يتخلى عن العمل، فلم يرد على هذا الاستفزاز الأخير، بهدوء مد الورقة فوق راحة يده، وبدأ فى الكتابة، ورنا صمت شديد حوله، وخلال لحظة، انحنى سوكة نحو الحوذى:

– هل تعتقد أن هذا الخطاب سيفيد فى شيء؟

رد عبد العال: نحن لا نعرف شيئا عن الحكومة، ولكن يجب علينا أن نحاول أن نترك الأمر، فسوف يدفننا سى خليل أحياء، يجب أن ندافع عن أنفسنا.

– أقول لك الحق، إن هذا العمل لا يهمنى.

– نحن نرى جيدا أنك لست سوى متشرد بلا امرأة أو أولاد، وليس لك أدنى مسئولية ويمكنك أن تنام فى الشارع.

قال سوكة: لقد حدث لى أن نمت فى الشارع، يمكنك أن تتأكد أن هذا لا يخيفنى.

هذه الطريقة فى التواؤم مع الظروف الحالية، أصابت الحوذى بالغضب لأنه بدأ يفهم أن روحا واحدة يمكنها أن تواجه كل كمائن القدر، قال:

– إذن، لماذا تبقى هنا؟

أطلق سوكة إشارة حادة، وذهب يتطلع من ثقوب المشربية، كانت الشمس تسقط على الحائط المقابل وقد أضاءت النافذة ذات الأسياخ الحديدية والتى تحبس الفتاة ناهد خلفها، أطلق سوكة تنهيدة وراح يدقق بشرود فى النافذة.

ركز أحمد صفا وهو يكتب فى الورقة، ومن وقت لآخر كان يبلل طرف قلمه بلسانه، وبدا جادا للغاية، ولم يستجب أبدا لغموض بيومى التلميحى، الذى يحاول أن يربكه، ولم يبد أن هناك شيئا يغير من كذبته، قال عبد العال:

– إذن، فأنت لم تنته بعد؟

قال صفا: ليس بعد، أصبر قليلا وسترى علام يقدر الحشاش.

قال بيومى: لن ينتهى أبدا أنا أعرف هذا الحرامى.

قال رشوان قاسم:

– ترى من يؤكد لنا صحة ما فى هذا الخطاب، هل يعرف أحد منكم القراءة؟ لا، أليس كذلك! ولا أنا. إذن أشرح لنا كيف نعرف ماذا كتب هذا الحشاش، هل هو ما نريده؟

قال صفا: فعلت مثلما أردتمون وقد انتهى تقريبا.

أثناء هذا نما الشك فى قلب رشوان قاسم الذى فقد ثقته فى كل سكان البيت.

قال عبد العال: اقرأ ما كتبته.

رد أحمد صفا:

– كما تشاءون، أيها الناس الطيبون، فأنا فى خدمتكم.

واقتربوا جميعا كى يسمعوه يقرأ الخطاب.

بدأ أحمد صفا:

عزيزتى الحكومة، نريد أن نخبرك عن الوضع الحالى لمترلنا فهو فى حالة انهيار وأن سى خليل، صاحب البيت الرذل، لا يريد اصلاحه، وقد أتى لنا بمهندس مزيف، يملك العديد من الشهادات، ولكننا سرعان ما فهمنا جميعا أن هذا المدعى لم يحصل على شهادة سوى استدارة مؤخرته وقد عاملناه بما يليق، ونحن نعيده من حيث أتى، ثم ذهبنا لنبحث عن أحمد صفا سائق الترام السابق وهو رجل قادر على كتابة هذا الخطاب أن يعرض لكم الموقف بكل أبعاده، نحن نأمل أن تأتى إلينا لتشاهدى المترل،

وكى يمكنك مراجعة المسألة، وإلا أتينا به عندك، فالأمر سيان، نحييك بكل احترام ونحن فى خدمتك حتى آخر يوم من أيامنا المعدودة.

توقف أحمد صفا وهو ينفخ، ثم أطل بنظرته على من حوله بنظرة دائرية، ومليئة بالقلق وسأل بصوت ملىء بالثقة:

– ما رأيكم يا ناس يا طيبين؟

هز عبد العال رأسه، وبدأ فى فتل شاربه، ولاعب رشوان قاسم وجهه بغير استحسان، أما بيومى فبصق أرضا كأنه أراد أن يسب شخصا شريرا وانتهى الأمر بأن قال عبد العال:

– ليس سيئا للغاية، والآن هاهو المظروف.

أمسك أحمد صفا المظروف، ولكن فى لحظة الكتابة ظهر مترددا، وقال:

– ترى ما هو عنوان الحكومة؟

سوف يفسد هذا العنوان العمل كله، فلا أحد يعرف عنوان الحكومة ، قال رشوان قاسم:

– ليس للحكومة عنوان، ولا يعرف أحد أين تسكن، ولم يرها أحد.

قال عبد العال:

– ومع ذلك، فهى موجودة.

قال أحمد صفا: من يعرفها، لا يوجد شيء أكيد فى هذا العالم.

قال بيومى: لماذا إذن كتبت هذا الخطاب للحكومة، إذا لم تكن واثقا من وجودها؟

رد صفا: أنتم الذين طلبتم منى ذلك، ماذا يمكننى أن أفعل! فعنوان الحكومة شيء وكتابة الخطاب شيء آخر.

قال عبد العال:

– أرسله إلى بريد المنشية، سوف يسلمونه إلى الحكومة، أعتقد أنهم يعرفون عنوانها.

قال رشوان قاسم:

– ماذا تعرف، ماذا يجعلك تعتقد أن مأمور القسم لديه الوقت لينشغل برسالتكم؟

قال عبد العال:

– لقد انتهى الأمر، أرجوكم اتصرفوا.

قام أحمد صفا من مقعده وراح يتصرف كأنه رجل انتهى لتوه من مهمة خطيرة، وقال:

– هذا هو الخطاب، أنتم أبناء شرفاء، أخبرونى، هل لديكم شىء يؤكل، فأنا جوعان؟

قال عبد العال:

– ليس لدينا شىء، لقد أخذت آخر مليم معنا.

– ولا حتى قرش صغير.

– هيا يا حرامى!

وعندما استجدى أحمد صفا النقود، أصبح من الواجب ارضاءه، ولكن النساء لم يتركنه هانئا بعاداته المخادعة، أمسكته كل واحدة على طريقتها، وألقين به فى السلم المتأرجح فصاح وهو يسقط:

– أتركننى أيتها النساء سوف أذهب، فقط أريد قططى، أين قططى أيتها النساء الطيبات؟

(9)

طوال الأيام البطيئة الإيقاع والحساسة، عاش السكان حالة انتظار محموم، معاناة غير محتملة قمز القلوب، كانوا يتابعون بعيوفم الشاردة تقدم الشق المرعب، ويوما وراء يوم أخذ الشق يتسع وارتج المترل جميعه من ضجة الموت الكامنة فى احشائه، انسلت رائحة البخور التى جلبوها للبركة وولت الأدبار، لاشك أن هذا العجوز متمسك بالدنيا وعندما رأى هذا الركام، صاح بلهجته المرحة: "أين الباب يا سيد؟ أرنى الباب" ثم استدار حول نفسه بضع مرات، وأخيرا اكتشف الباب ولم يفكر أحد فى إيقافه.

كان السكان وحدهم يتطلعون جيدا إلى كل الأركان، كانوا وحدهم فى هذا الخطر الكامن الذى انغلق عليهم أشبه بليلة لا يطلع فيها القمر. أما سى خليل صاحب البيت، فلم يظهر منذ حادث المهندس المشئوم، أما بالنسبة للخطاب، فهى لا يمكن أن تجلب سوى المآسى، وكان السكان مطمئنين من هذا الجانب، فلا شك أن الحكومة تجاهلتهم، لاهما مشغولة بأمور أخرى، ترى ماذا يمكن أن يشغل الحكومة؟ فالسكان يمكنهم أن يموتوا، ليموتوا ألف مرة، والحكومة عليها ألا تزعج نفسها قط من أجل أفواههم القذرة.

طيلة الأيام التالية، كان الحوش مركزا لنقاشات عابرة، تثرى الحياة بأمل مدير فى الانقاذ، فى هذا الصباح انفجر نقاش بين زوجة سليمان العبيط وزوجة رشوان قاسم وبدأ أبطال الرواية أولا فى الوقوف عند مسافة قريبة، دوت صدمة فى كل أنحاء الحوش، وقفت زوجة رشوان قاسم على عتبة الباب وهى تتخذ مظهرها الطفولى الهش، بينما بدت زوجة سليمان وهى تمسك وابور جاز، كأنها تتخذه سلاحا، هذا الوابور القديم، الذى يرجع عمره إلى مائة عام، كان موضوع خلاف.

نبحت نفيسة غاضبة:

– هل يسخر زوجك من الناس أم ماذا؟

– ماذا تريدين من زوجى يا امرأة؟

– أريد أن أسأله إذا كنت قد سرقت بالمصادفة القرش الذى أعطيته له كى يصلح الوابور.

– لقد أصابك الجنون يا امرأة، ماذا تريدين من زوجى أن يفعل بوابور من زمن أبونا آدم، أنصحك أن ترميه فى الزبالة.

– زبلى نفسك، لم يكن عليه أن يصلحه، هذا الحرامى، أما وابورى فهو أحسن وابور فى المدينة.

– إنها مؤخرتك التى تحملك يا امرأة.

– لا أحد يريد مؤخرتك، يا ابرة صدئة.

– اذهبى وشاهدى زوجك الكسلان، قبل أن تتكلمى عن الناس، نحن نعرف جيدا أنه لا يجدك على مزاجه، وإنه يفضل عليك الزنجيات.

سرعان ما فهمت زوجة سليمان العبيط أن هذه الشتائم لا تفيد فى شىء ازاء ما تطلقه من ادعاءات، قفزت فوق زوجة رشوان قاسم وعندما رأتها هذه تنقض عليها، ألقت طفلها البائس فوق الأرض، وقابلتها بقدم ثابتة واشتبكتا فى معركة ضارية.

لم يكن هناك أحد فى الحوش كى يوقف هذه المشاجرة، كان رشوان قاسم الذى أدين فى قضية الوابور قد رحل يتجول كعادته فى طرق المدينة الطويلة، أما سليمان العبيط فقد كان نائما فى بيته دون أن يرتاب فى شىء فقدوم الصيف القادم ملأه باليأس، كان عليه أن يطلق صيحات نداء ويبيع الشمام تحت الشمس الحارقة.

ونزل عبد العال كى يفصل بين المرأتين، وانزعج الحوذى من رؤية أصحابه البائسين، لم يفكر سوى فى أن يقاطع مأساتهم المشتركة ونزاعهم العقيم، فبالنسبة لهما فالعالم لم يتغير. لقد ظلتا دوما غارقتين فى نفس الظلمات، رغم الموت القريب، واستمرتا فى تجاهل مغزى الحياة، لم يكن لديهما أى تمرد داخل نفوسهما تتسق فيه الحقائق العمياء، هذا العالم هو عالم التكاتف الفعلى والعملى، إنه قادر على هدم أكبر العوائق. أحس أنه لا يتسطيع أن يفعل شيئا فماذا يمكن للإنسان وحده أن يفعل؟ الرجل الوحيد هو شىء بلا قوة، قادر فقط على التأوه والنحيب. أراد عبد العال أن براهم ينتبهون إلى نفس المكان من جسده وأن يستيقظوا جميعا

وهم يشعرون بنفس المعاناة، ونفس الرغبة فى الحياة يمكن لسى خليل أن يأتى ويظهر، سوف يمسكون به كحشرة حقيرة فى سلسلة حديدية فى أيديهم القوية التى لا يقيدها شىء.

وضع عبد العال خطة أساسية، فطالما أن سى خليل لا يود إصلاح المترل، فعلى السكان ألا يدفعوا له الإيجار، وهنا سيفهم أهم المترل وليس هذا الهيكل من الحجارة التى يفخر أنه يمتلكه، خشى عبد العال ألا يكون زملاؤه مستعدين لتحقيق هذه المعجزة من التكاتف الإنسانى، الذى يمكن أن ينقذهم فالخوف يستبد بهم جميعا، هذا الخوف الذى يقلب اعضاءهم وأمخاخهم. كم يلزمه من وقت كى يفهموا مصيرهم ولكن هل هؤلاء الناس الذين يحبون قد شرعوا فى المشى فوق النور؟ يلزمهم الكثير من الوقت قبل أن يمكنهم فهم ضوء الشمس النقى والرائحة المنبعثة من الحياة.

اتجه عبد ربه الزبال نحو الحى الأفرنجى كى يفرغ زبالة الأثرياء وفى الفناء إلتقى عبد العال، وراح يشكو إليه:

– ما الذى يدفع هاتين المرأتين للصراخ هكذا؟ الهما بالتأكيد يفتقدان العفة.

قال عبد العال: هل هذا يزعجك؟

– الأمر لا يتعلق بى، ولكن بزوجتى الشابة، فهى يمكنها أن تسمع أيضا كل هذه الألفاظ القذرة الهما تصرخان بصوت عال.

سأل عبد العال مندهشا: كيف؟ هل لك زوجة؟

– بالطبع لى زوجة! يبدو أنك لا تعرفها.

لم أرها أبدا، أتقول أنها شابة؟

قال الزبال الذى رأى أن المناقشة انعطفت منعطفا خطيرا: ماذا يمكن أن أفعل لك؟

– أنت الذى تتكلم الى. هل طلبت منك شيئا. اتركنى فى حالى! فأنت تثير قرفى أيها الرجل.

غادر الزبال المكان دون أن يرد، فهو يكن لجيرانه ازدراء رجل ميسور تجاه شحاذين، انه يعيش بينهم بسبب البخل، فمسكنه لا يكلفه سوى مبلغ ضئيل، والزبال يكسب ما يكفى من المال كى يمكنه أن يعيش فى مكان آخر، فمسألة أن يترك المترل مطروحة عليه، ولكنه لا يستطيع أن ينتقل الآن، فقد دفع أجرة شهر مقدم.

كان عبد العال يعرف أنه لا يستطيع أن يعتمد على الزبال، فهذا الرجل خائن، وقادر على أن يبيع أمه من أجل النقود، لا يعرف سوى مهنته البشعة، وشك عبد العال أنه يخبئ ثروة. لا ليس هو الذى يعتمد عليه فهو هكذا مع الآخرين، هؤلاء الذين يقتلون الشعب ويسرقونه.

خرج عبد العال من العطفة ونزل المنحدر ببطء كرجل يحمل كل ثقله على الأرض وأيضا كل ثقل الأحلام المنهارة للبشر. من المرعب

تحمل كل هذا، ورغم ذلك، بدا له أن شيئا ما سوف يرفعه، شيئا أكبر منه، أشبه برياح قوية متمردة، توقف قريبا من الدرابزين الحجرى وراح يتأمل الميدان الفسيح حيث تتجمع أغلب المآسى، مثل شخص أبرص يتحرك تحت الشمس. هذا المشهد من حياة الناس الشاقة التى توقظ فيه وعى جديد. أحس أنه لكى يدخل فى معركة ضد هذا العالم من المتوحشين، يجب أن يلغى عزلته، ويبذر الحقد روح الانتقام فى كل مكان.

انزعج فى هذا التأمل بحضور طفل فى حوالى الثامنة من العمر، كان منحنيا فوق درجات السلم، وهو يقضم قطعة من الخبز المليئ بالتراب لم يلحظه عبد العال فى البداية، اندهش وهو يتعرف فيه على أحد أبنائه، حركته الأولى جعلته يدير رأسه ولكنه أحس تقريبا بالانجذاب نحو هذا الطفل الذى ولد من لحمه ودمه والذى يشاركه التوتر العام لنوعه البشرى، قال بلهجته مداعبة:

– هأنت تتناول طعامك كأولاد الأثريا.

رفع الطفل رأسه ورأى أباه، لم يبد منزعجا، احتفظ بنفس الملامح التى يبديها أمام كل متاعب الحياة، وتمتم:

– نحن نبذل ما فى وسعنا. من أين أخذت هذا الخبز؟

لم يرد الطفل هذه المرة، تناول عيشه فى صمت، صاح عبد العال:

– رد عندما أتكلم إليك، من أين أخذت هذا الخبز؟

قال الطفل بعد لحظة: هل طلبنا منك شيئا؟

حاول عبد العال أن يغير لهجته، أراد أن يقترب من ابنه، ابنه الذى يكاد يعرفه، ويبدو غريبا بالنسبة له، لم يحاول أن يعمق الأغوار السحيقة لروح هذا الطفل المنبعثة فيه، والقريبة من المأساة الأبدية لهذا العالم، التى غفل عنها منذ ولادته، كيف ندخل فى هذه الهوية من الأحلام الطفولية البريئة المتمردة؟ فى التباين المتوحش للطفل، رأى عبد العال علامات الحقد تندفع بشدة. فبلا شك فإنه يريد منه أن يتقبل هذه المأساة، وهذه العبودية التى أصبح فيها الطفل وريثا قدريا، لكن كيف يتبرأ فى عينيه؟ انه هناك، غاق فى صمته أشبه بالقاضى الذى ليست فى قلبه رحمه.

أحس عبد العال بكل ما يفصله عن ابنه، فقد قتلت المأساة كل روابط الدم، أى روابط دم تقاوم هذه المأساة الممزقة والمهترئة، ها هو طفله لا يتعرف عليه، لا هو ولا أحد، لقد فهم الطفل منذ وقت طويل أنه يعيش وحده فى مقبرة ضخمة يقتلون فيها البشر بقوة الطغاة العاصفة إنها مغروسة فيه بعبقها منذ نعومة أظافره، فهو يبحث فى الزبالة عن غذائه، وتعلم كيف يدافع عن نفسه، لم يعد هناك أب ولا أم بالنسبة له، ولكن فقط عالم من الجنون الأبدى. أحس عبد العال بنفسه تنزلق فى أعماق سحيقة من الخوف الأكيد، اقترب من ابنه ووضع ذراعه حول كتفيه، تركه الطفل يفعل بكل وضوح:

– تعال معى، سوف نتنزه قليلا.

سأل الطفل: أين؟

- لا يهم، تعال.

ونزلا السلم معا، واتجها نحو وسط الميدان، إنه يوم آخر ضائع فى دورة الزمن لا توجد هناك تغيرات فى شكل العالم والأشياء، وحولهم يستكمل الناس حياتهم. وبزغت الشمس رغم السحب الخائفة، التى تتبعتهما بأجنحتها الممزقة. تنزها وقتا طويلا فى المتنزهات الخضراء، قال الطفل:

- الآن دعنى فى حالى.

- إلى أين تذهب؟

- لا أعرف. هل ستظل تضايقنى وقتا طويلا؟

قال عبد العال: اذهب ولا ترينى وجهك.

وسرعان ما شق الطفل طريقه. وتبعه عبد العال بنظراته، ثم رآه يقفز فوق سلم الترام.

وعاد وحده إلى المنزل وهو يسلك الطريق الطويل على قدميه نحو القلعة. لقد أحس بخيبة أمل مريرة فى سلوك ابنه. إنه رجل له حياته الخاصة وبروده الوحيد.

وفى الحوش، رأى شحاته النجار يقوم بتصنيع نعش من أحد أبواب مسكنه، أراد أن يصبح حفار قبور، فقط فإن النعش صغير للغاية. لن يكون شحاته سوى حفار قبور للأطفال، إنها فكرة غريبة. فكر النجار: "أه لو استطعت أن أقتلها. آه لو أمكننى فقط أن أقتلها" ولكن عمن يتكلم؟ إنه يريد أن يغتال شخصا. ماذا يمكن أن ننتظر من رجل جوعان بالتأكيد. سوف تجده الشمس يوما قتيلا، ولكن ممن؟ ترى من القاتل؟

(10)

يحب الأطفال أحمد صفا كثيرا. لأنه يسحرهم بحكاياته الخيالية. فهو يعيش مثلهم كطفل. وليس لديه شعور الكبار، ولا الهموم الثقيلة المتناثرة الرائحة. وهذا الحشاش ليس خجولا من مأساته. فهو يفتقد هذه الكرامة الغبية التى يتحلى بها الآخرون، عندما يتعلق الأمر بالشحاذة. لأن الفقر أكثر سببا لاثارة الرعب. والخزى أن يكون المرء فقيرا. لحسن الحظ. فإن للأطفال مشاعر نقية. ولا يدهشهم التحلى بالاخلاق. النبل الوحيد هو فى أسمال حياقم. كان أحمد صفا يجمعهم أحيانا فى بيته كى يناقشهم فى بعض الأمور التى تتطلب الكثير من المبادرات والجرأة.

كان الأطفال يقضون أفضل أوقاقم خارج المنزل فى الحارات والضواحى وينظمون الألعاب حول النهب والمذابح، كان يومهم مشحونا تماما وعندما يحل المساء يعودون إلى بيوقم منهمكين، كى يعانوا من قسوة ولعنات الأمهات ثم ينامون هادئين، وقد دفعوا أعباء حياقم الثقيلة خلفهم، الهم لا يشكون قط، فالانسان يشكو لأنه فهم أنه عبد ويبحث عن فرصة للخروج فيصول ويجول، ولكن شيئا لا يحدث بالمرة ويجب أن يحدث دوما شيء ما، أحس عبد العال بهذا فى جلده، يجب أن يحدث له شيء يحركه بقوة، ولكن من أين يجيء هذا الشيء الرهيب الدامى؟ ربما من هذا الحشد من الأطفال الذين تربوا فى المجارى والأوحال فهم يبدون كأنهم يحملون فى أنفسهم بذور حياة جديدة، إنهم القوة التى

سوف تبزغ يوما من طين الأحياء الشعبية، قوة ضخمة متفجرة لا تتوقف أبدا، قادمة من أعماق العطفات، تغمر الميادين والشوارع وتموج كبحر هائج، وتصل إلى ما وراء النهر، والجزر النائمة فى بهاء القصور وهناك تكف عن الحركة، وتتنفس الصعداء حين تبلغ هدفها.

عندما سقط العجوز كاوه مريضا، بقى متمددا فوق الفراش، كان يرى الحوش، عبر الباب المفتوح، والليل، ويسمع حركة الناس فى الحوش، ويغلق عينيه وينتظر أن تأتى إليه يد تمسكه، يد الموت الباردة.

لكن يد الموت الباردة لم تمسه بل راحت تلمس الآخرين فى المدينة، آخرون لا يعرفون إلى أين يذهبون. الآن أغرقت الشمس ركن الحوش واستيقظ العجوز كاوه. إنه هناك متمدد على مسافة قريبة من الباب، وفوق المقعد توجد برتقالتان أصابهما العفن، جمعتهما العجوز خدوجة من الزبالة هذا الصباح، أمسك العجوز كاوه برتقالة وراح يقشرها، ثم قضمها بكل فمه، فتسرب العصير الأصفر من أصابعه النحيلة، التف حول ذقنه. ارتشف القشرة ولعق أصابعه، وأكل مثلما يفعل الطفل الشره ولاعب لسانه ثم جفف فمه بيده، تلطخ أسفل وجهه من العصارة، هذه البرتقالة العطبة ذات الطعم الحمضى أصابته بالسعال، أغلق العجوز كاوه عينيه وأحس بالرضاء، تكرع بمتعة لا نظير لها، وارتعد هيكله العجوز كأنه واقع تحت سطوة متعة مجهولة وفاسدة، فجأة سمع صرير الباب الخشبى الثقيل، بدا له أن شخصا يقف على العتبة، فتح عينيه ولم ير فى البداية سوى سواد قاتم يعبر الأنوار المكتسية بالحمرة، أبهرته

الشمس ورأى شخصا يمشى فى الفناء، ويقترب. جاء ينتصب أمام العجوز كاوه إنها فتاة نحيفة ترتدى فستانا لا لون له، ومرتق.

تعرف العجوز فيها على ابنة شحاتة النجار، نظرت إليه دون أن تقول شيئا استكمل كاوه التهام برتقالته، كان للفتاة عينان متوسلتان بدتا فى نفس الوقت متحفزتين، ارتعدت شفتاها الشاحبتان، راح كاوه يميز جد الفتاة الصغيرة عبر الفستان الممزق. فى البداية رأى صدرا نابتا، ولحما قذرا مصابا بفقر الدم، لم يتوقف عن تأمل الصدر وهو يأكل، لم تتحرك الفتاة ولم تنطق بكلمة وشعت منها دوما هذه النظرة المتوسلة التى تشع بالشهوة والسخونة، مرت لحظات داعرة تحركت الفتاة ثم اقتربت، انها الآن قريبة جدا من العجوز. نظر إليها كاوه بدهشة، لم يستطع أن يتخلص من نظرته من فوق صدر الفتاة، إنه مصاب بمرض فى كل جسده، توقف لحظة عن الأكل لا يوجد أحد فى الحوش فى هذه الساعة فكل شىء هادىء. أحس العجوز كاوه بالدوخة تعتمل فيه، لعبت الشمس فى لحيته، وجعلت من نقاط العصير أشبه بحبات لؤلؤ صفراء، ينظر دائما إلى حلق الفتاة وفى ارتباكه بدا له أنه يرى صدرا ضخما، قادما إليه عبر مسافات شيطانية بعيدة.

فهمت الفتاة هذه النظرة المترددة المثبتة على صدرها، فهمت ارتباك العجوز وبشكل غريزى تركت نفسها وأصبح كل شىء فيها مستعدا للاغواء، وابدت حركة كشفت فيها عن بدنها، أصابت العجوز كاوه دهشة ويبقى فاقد السيطرة أمام بدن هذه الفتاة الصغيرة، تتخذ

الفتاة الآن أوضاعا شهوانية حقيقية، تتمايل كراقصة يهتز بطنها إنها مستعدة تمام، وبحركات مبهمة نظر العجوز إليها بشهوانية حية، هذه البطن الضامرة والناتئة العظام تدل على أثر ما يستبد بها، لم يبد أى شفقة فهذه الفتاة الداعرة تغويه بشكل غريب، أحس برغبة تمتشق فى داخله، عالم بأكمله مكبل من المداعبات، ارتعدت أصابعه النحيلة، قبض على قطعة البرتقال الباقية فى يده كشخص أصابه مس، حاول أن يقوم شيئا كى يبعد هذا الكابوس الوحشى من دعارة فاحشة:

– ماذا تريدين يا فتاة؟

لم ترد الفتاة، صرفت عينيها الملتهبتين فى البرتقالة الموضوعة على المقعد بشهوة حيوان جوعان، إهتزت وهى تكشف أكثر وأكثر عن جلدها النحيف وحاولت أن تفعل شيئا رجسا، أطلقت تنهيدة باكية، وبدا توتر وجهها فى قمته ورغم ذلك، بدت مبتسمة، هذه الابتسامة المليئة بالحسية، لم يملك العجوز شيئا، فاختنق:

– ماذا تريدين يا فتاة؟

ارتبك العجوز، وأشعلت الفتاة الداعرة معركة محددة، فى قلبه الكسير الذى يرى بصيصا من الأمل فى العالم، قالت الفتاة:

– أريد قطعة.. أعطنى قطعة.

اكتسى صوتها بأنات مثيرة، وبدت كهجامة وأغلقت نصف أهدابها وكأنها تقدم نفسها له، قلبت رأسها، بدا وجهها الرقيق ضاحكا وسط

الشمس، وانبعثت منها ايماءات بذيئة فى كل حركاهّا، لم يصدقها العجوز كاوه، ظل ينتظر قلقا، إنها الهلوسة بلا شك، حلم عابر فى جلدها، كأنه سينهار لتوه ويختفى، استشف اللحظة، التى يسقط فيها كل شىء فى إطار الحياة المحدود لكن لا، لم يختف شىء بل على العكس فقد أصبحت الرؤية أكثر وضوحا، أطلقت صيحة ضعيفة مختنقة:

– أنا جوعانة.

خرجت الصرخة من أعماق الأرض، اهتز العجوز كاوه فى ظل كيانه، خيل إليه أنه يسمع فى هذه الفتاة كل قواه المعطلة والضائعة، تردد أن يعطيها البرتقالة، فهو لا يريدها أن تذهب، لقد مست فيه الفتاة، منذ قليل، كل الأشياء المنسية، أزعجته الرؤية الشهوانية، بدت كأنها أطلال تولدت بقاياها من جديد، فجأة أمسك البرتقالة ومدها إلى الفتاة.

لم تستطع الفتاة أن تأخذها، فقد ظهرت العجوز خدوجة على عتبة الباب كانت ترقب المشهد منذ لحظات، أصابتها الغيرة والغيظ وقالت:

– اتركى الرجل فى حاله يا بنت الفاجرة هل رأيتم يا ناس فتاة مثلها؟

فوجئت الفتاة بظهور العجوز، لم تعرف ماذا تفعل، لملمت أشلاءها حول عريها النحيف، ثم انتزعت البرتقالة وقفزت نحو الباب الداخلى.

بقى العجوز كاوه مرتعدا، وقد انقبض وجهه، وتركزت عيناه المريضتان فوق مشهد بدا فيه كل تفصيل يتضمن دنيا بأكملها.

لم يمكث سليمان العبيط طويلا فى المترل، بدا له الخطر حاضرا، أخذ حذره، راح يتغيب عن البيت ما استطاع، يخرج ويذهب للتتره لساعات، ثم يعود متعبا خاوى البطن، منع عنه جوعه النوم والراحة الطويلة، أصابه النحول حتى يخيل إلى من ينظر إليه كأنه لا يراه، شكت نفيسة أنه يذهب برؤية نسائه الأخريات، إنها تجهل السبب الحقيقى لهروبه، وأحس سليمان العبيط بالخجل لدرجة الجبن، لم يقل الحقيقة لزوجته، لقد غير اسلوبه وأصبح شكاكا، عانى من ألف قلق جديد، فخروجه يكلفه فى كل مرة الفشل تلو الفشل، لم يسبق له أن أحس أنه مريض باليأس، يحس أن هناك مؤامرة مدبرة ضده من سكان الاحياء المجاورة، لذا، فهو لا يمكنه أن يظهر فى الميدان دون أن يقابل كل الأطفال الذين يسمونه بالأب ويقولون له:

– اشتر لنا حلوى يا أبى.

ويضطر سليمان العبيط أن يتخلص منهم بكل السبل، أحيانا يشترى لهم عسلية وأحيانا أخرى يضربهم، ويصل الشرطى ويلتم الناس، فيمزحون، ويداعبونه وهم ينادونه "أبى" بدورهم.

– قل لى، يا عم كاوه كيف أتخلص من هذه العصابة الشاذة؟ هل تصدقنى أنهم يسموننى "أبى" وضطروننى أن أشترى لهم عسلية.

سأل كاوه: ألست أباهم؟

– هل أنا أبو كل أطفال المدينة! بشرفى إنها مؤامرة، مؤامرة حقيقية سوف ينتهون بقتلى فأنا مريض.

ثم يهدأ لتوه ويسأل بصوت هلع:

– هه.. ما هى الأخبار يا عم كاوه؟

– ليست لدى أخبار أبلغك بها، يا بنى، فأنا قليلا ما أخرج.

قال سليمان العبيط: أنا لا أطلب منك أخبار الخارج، بل أكلمك عن المترل.

– المترل دائما أمامك، لم يتغير، أليس لديك عينان قويتان لرؤيته، أنا ماذا يمكننى أن أقول لك؟

تنهد سليمان العبيط: أراه جيدا، الحكومة تتهرب منا، ليس لديها ما تقوله لقد أرسل الخطاب منذ أسبوع.

لم يجب العجوز، إنه يحلم، يروح يشرد بعيدا حيث منطقة مخيفة لا يستطيع نسيانها، فقد أتعبت الشمس عينيه، رفع يده إلى أعلى الجبهة وبحركة وقورة قال كأنه يتكلم إلى نفسه:

– ربما أن الحكومة لا تعرف القراءة يا بنى.

– ماذا تقول يا عم كاوه؟ الحكومة لا تعرف القراءة.. يا ابى لقد ذهبت الحكومة إلى المدرسة قبل أن تصبح حكومة ألا تعرف ذلك؟ أنا ياعم كاوه، عندما كنت صغيرا، كنت أود أن أصبح حكومة.

– ولماذا لم تصبح؟ لعلك كنت قد ساعدتنا الآن.

لم يظل بائع الشمام مخدوعا طويلا بهذه المسألة، فقد أقلقته كلمات العجوز، لأنها بالنسبة له أشبه بجرعة من الحديد المقوى، قادرة أن تنتزعه من غباءاته المتراكمة.

قال بلهجة متقطعة: من ناحية أخرى إنه عمل بسيط للغاية، لا يجب أن تخاف، يا عم كاوه.

– لست خائفا يا بنى.

وراح العجوز ينسى مأساته تماما، والمترل وكل جنون البشرية والخطر فقد سيطرت عليه كل القوى الشهوانية والخيالية وكأنها جدران سجن، لدرجة انتزعت منه دموعه.

صعد سليمان العبيط إلى مسكنه، لم تكن زوجته هناك ولا الأطفال، تمدد فوق سريره وراح يفكر، شغلته مسألة البيت بعمق وبدأ يحس بخوف مجهول، خوف حقيقى طبيعى ونام أخيرا وهو يتساءل عما إذا كانت الحكومة ستتركه يسقط وعما إذا كان لا يوجد أى أمل حقا.

وفى وسط الليل وبينما تنام امرأته وأبناؤه تسلل سليمان العبيط وفتح باب مسكنه ونزل إلى الحوش وتلفح بغطاء وشال لم ينس البرد الذى يقسو فى الخارج، إنه الآن يتموج فى الحوش المظلم، وبحث عن مكان غير مطروق دوما، حيث يمكنه أن يتردد لينام. وفجأة، استند على مائدة النجار، أطلق صرخة ضعيفة انطلقت فى الصمت. أحس سليمان العبيط بخوف مميت، غير اتجاهه، ثم توجه نحو الباب الضخم، هناك لا يوجد أى تهديد مباشر، فرش الغطاء أرضا، وتمدد فوقه ثم تغطى بالشال وأطلق تنهيدات متقطعة ولهث، لم يجرؤ أن يصدر حركة فالظلام يحوطه كأنه مقبرة، أغلق عينيه وسمع من بعيد صوتها مليئا بالتوتر، كأنه غارق فى الأبدية، استعد سليمان العبيط للغوص فى النوم، بينما زحفت نحوه الحشرات الصغيرة والسوداء وسط الليل الحالك.

(11)

في تلك الأيام المشئومة، أصيب رشوان قاسم، مصلح مواقد الجاز في حادث كاد أن يكلفه حياته.

عاد هذا العامل الميكانيكي الفخور بنفسه دوما ذات يوم إلى المنزل وقد ربط حول وجهه ورأسه عصابتين تحمله قدماه، في الشارع أنطلقت صراخات زوجته، وهي تراه على هذا الحال، أحست أنه من الصعوبة أن تتعرف عليه، فقد بدا زائغ العينين لا يعي شيئا بالمرة وأخيرا عندما استطاع أن يتكلم عرف أن الأمر يتعلق بوابور جاز انفجر بين يديه أثناء اصلاحه، ولكن فيما بعد انغمس في بلادة وراقب في صمت دائم كل ما يحس إنه موجه ضد العالم بأكمله، وفيما بعد علم رشوان قاسم قد زعم أن هناك مؤامرة لقتله، لأنه ذكي ويعرف أشياء كثيرة.

حدث هذا في لحظة انتقاد ذات شجن على مزاج كل السكان، بدا أن المنزل الآيل للسقوط تمكن في أغواره أرواح ماكرة وبداخله كل المتاعب لأرواحهم.

مارس رشوان قاسم في صمته الأبدي سطوة خفية، عذابا حقيقيا تجاه كل من جاء لزيارته، قام باللازم كرجل وقع تحت آلام شديدة يفكر في الانتقام الداخلي، تواءم هذا الموقف مع الشخصيات وأثار الحقد عليه فتمنوا لو يموت بسرعة حتى لو كان قادرا على التنفس وجدوا رشوان

قاسم يبالغ فى آلامه أما بالنسبة للسكان فإن الألم الحقيقى هو الألم الوحيد الذى يستحق الانتباه، انه المترل المترنح الذى سينهار، تخلى عن هذا الألم الجماعى، كى يبدو وبشكل أنانى ألما شخصيا، خطيرا وبدون سبب ظاهر يبدو بالنسبة لهم خيانة واضحة.

وطوال الأيام، احترم عبد العال صمت العامل الميكانيكى ولم يحاول أن يعارضه فى شىء، كان رشوان قاسم عنصرا لا يجب تجاهله، الحوذى فىحاجة إليه كى ينفذ خطته، ولذا فقد ذهب لزيارته، راح يتكلم وهو يقترب منه:

– كما ترى يا قاسم، فنحن معرضون للحوادث، ألم نولد للألم؟ أين يذهب الألم، إذا لم يستقر عينا؟ عليك يا أخى أن تتحلى بالصبر والشجاعة.

لم يعلق رشوان قاسم على هذه الخطبة البرلمانية فكلمات الحوذى الشجاعة لم تفد إلا فى جعله أكثر شراسة، لاشك أن لديه فكرة عن الألم وأن الإنسان لا يستطيع أن يتخلص منه بينما هو ممدد فوق فراشه، ضاعت نظرته فى السقف وتظاهر بتجاهل المتحدث وسيطر صمت ثقيل فوق الغرفة، أجاب عليه عبد العال:

– وبعد، نحن رجال لا يجب أن نترك الأمر يسير هكذا.

وعند هذه الكلمات بدا كأن رشوان قاسم يخرج من غيبوبته، فتح عينيه، وبذل كل ما بوسعه، كى يرتكز على مرفقيه وصاح:

– أين الرجال يا عربجى! أين الرجال إذن؟ هل يعيش الرجال الحقيقيون مثلنا؟

قال عبد العال: نحن فقراء ورغم ذلك فنحن رجال، نحن ممن ننظر إلى الاشياء من زاجهتها، اسمع.

– لا أريد أن أسمعك أتركنى فى حالى، فلدىّ رأيى وأعرف ما أفعل، كل الناس يتآمرون ضدى وسوف أنتقم.

– لن تنتقم وحدك، فلا يمكنك أن تفعل ذلك بمفردك.

ساد الصمت من جديد فى الغرفة، تخشبت أم سعد داخل آلامها وهى تناول صدرها لابنها الشاحب اللون راحت تطرق أذنها، وحاولت أن تسمع ما يقوله الرجلان، تعلق الحوذى برشوان قاسم ثم لمس جبهته، وهمس:

– اسمعنى، يجب أن نفعل شيئا أنا فى حاجة إليك.

– أنك حاد الذكاء، اعتمد على نفسك فقط، لا تعتمد علىّ فأنا أعرف ما سوف أفعله.

– مستحيل.. يجب أن نكون معا لا أستطيع أن أشرح لك الآن، لكن هناك بضعة أشياء بدأت أفهمها منذ أن توقفت عن العمل فكرت فيها أكثر فأكثر، انها أشياء تبدو عديمة الفائدة وتسرى ببطء فى داخلى،

وأكاد أن أحتويها، أحس برأسى يكاد ينفجر، وأننى أصبحت مجنونا، هل أخبرتك بذلك؟

– وسوف تجعلنا مجانين مثلك، ياعربجى الشيطان! من أين تأتيك هذه الأشياء؟

نظر عبد العال أمامه، لا يوجد سوى حائط متصدع مزخوم بالعفونة، أحس أنه يستند على الحائط فقال:

– لا أعرف، فمنذ أن شرعت فى التفكير فى مأساتنا المشتركة أحس أنها تولد فى داخلى كنباتات مسمومة حاولت أن أنقيها، ولكن بمجرد أن ألمسها، فانها تعود فجأة إلى الظل، ولا أستطيع أن أتبعها.

أغلق رشوان قاسم عينيه وقلص وجهه، كأنه يشك فى ملمح الأشياء التى يكسبها صوت الحوذى شكلا وحضورا ملموسا، كشفت القماشة البيضاء التى تعصب رأسه عن شحوبه، وأحدثت فى داخله أمرا مثيرا ومجهدا، توغلت فيه كلمات الحوذى وأحس أنه وحيد تماما، ولا يملك شيئا ضد العالم ولا ضد أحد، انفجر فى نفسه أحساسه بضعفه، وأصبح أكثر ألما بجرحه، ماذا يفعل إزاء هذا العالم العدوانى، ضد هذه القوى الهائلة التى لا تحدها حدود لا يمكنه سوى أن يتنهد وينتظر الموت، لا شك أن الحوذى على حق، انه يتكلم بطريقة غامضة تنسال الشكوك وراء كل كلمة يقولها. تذكر رشوان قاسم بعض تعليقات الحوذى التى بدت له مشبوهة فى المقام الأول ومتعسفة من الطراز الأول ولكن بينما

هو يفكر فيها تذوق الحقيقة لأول مرة وأحس بانقلاب فى كل كيانه، وأن نورا قد توغل فى داخله فجأة.

فتح عينيه، ونظر إلى الحوذى:

– أذكر اليوم الذى قلت فيه لسى خليل أن بيته ملكنا وأنه بدوننا لا يملك سوى كومة حجارة وطين، فى البداية لم أعلق أهمية، ولكن فيما بعد أدركت مدى رجاحة عقلك يا اخ عبد العال، كيف توصلت إلى هذه الحقيقة؟ هل أنت نبى الصدفة؟

قال عبد العال:

– ليس هذا عمل النبى، لقد أردت أن أقول لك ذلك من قبل ولكن أنا نفسى لست سوى فى بداية هذا الطريق من الحقائق لاكشف كل ما أعرفه، يجب أن ندافع عن بعضنا، أن نكون حزمة مترابطة، لا يجب على أحد منا أن ينفصل عنها.

العجوز يفكر دائما فى البيت وهذه المشكلة تسيطر عليه وعلى كل الآخرين، إنه مهموم بمشكلتهم المشتركة، سأل رشوان قاسم:

– ماذا يمكن أن نفعل؟

رد عبد العال: أولا، يجب أن نجبر سى خليل أن يصلح البيت.

– وكيف نفعل ذلك؟

– لقد فكرت فى الأمر مليا، إنه لشئ بسيط، علينا ألا ندفع له الايجار.

– أعتقد أننا يمكن أن نفرض ذلك؟

– لا يوجد حل آخر، يجب أن نعلمه أننا بشر وإنه يجب أن يعاملنا كبشر.

– أتعتقد أنه سيفهم؟

– إذا لم يفهم، فستكون أنت على حق.

لاح الغروب فى الغرفة تاركا الظلام فوق أركان الجدران، حاملا معه كل الغموض، استكمل الحوذى ورفيقه المحتضر التفكير فى مصيرهما، وكأنهما قد غطسا فى مياه الليل الزرقاء الذى يطلا عليه الآن.

عندما ترك رشوان قاسم، نزل الحوذى إلى الفناء ووجد بعض السكان، وميز فيهم عبد ربه الزبال الذى وضع حقيبة الاسماك فى ركن كأنه يملأ زجاجة عطور فارغة بمياه زمزمية تخص العجوز كاوه الذى ينظر إليها بدهشة، ضحكت زوجة سليمان العبيط ساخرة:

هل تعطر نفسك يا زبال، بشرفى، إنه لآخر تقليعة.

أجاب عبد ربه: الزبالون أنظف منك، فهم يكسبون عيشهم بعرق جبينهم.

– متى ذقت العيش؟ يا مسكين.

كف عبد ربه عن الانشغال بها واستكمل حاجته بهدوء إنه رجل منظم يعرف كيف يتواءم مع الظروف، فهو يرتدى ستره عسكرية من الكتان الكاكى، أسودت من شدة القذارة والأوساخ، أما الزجاجة المليئة فقد راح يهزها، ثم وضعها فوق أنفه وأخذ يشمها، سأله عبد العال:

– هل رائحتها نفاذة؟

قالت نفيسة: هل يمكن أن يقاومها، إنه لا يعرف سوى رائحة القذارة.

ظل عبد ربه غامضا بالنسبة لهم، فقد عثر على زجاجة العطر هذه فى صندوق القمامة، إنها هدية خصصها لزوجته الشابة لا يعرف أن امرأته تتقيأ أمام هذه القذارة القرقيقة، اعتاد على ان يجمع الهدايا بنفس الطريقة تأهبت الشابة ناهد لقتل نفسها من كل هذا السلوك.

حمل حقيبة الزبالة فوق كتفه، واستعد للصعود إلى مسكنه، وبينما هو يعبر الحوش، استوقفه عبد العال:

– أريد أن أكلمك يا رجل.

قال الزبال: أتمنى أن تكون الأنباء سارة.

قال عبد العال: الانباء السارة لا تصنع من أجلنا.

– إذن فالأمر يتعلق بالنباء السيئة، أرجوك احتفظ بها لنفسك.

وأراد أن يذهب إلا أن عبد العال أصر قائلا:

– ومع ذلك يجب أن تسمعنى.

– إذن تكلم، وليرحمنا الله.

كان الزبال شخصا جامحا لا ينطق بإسم الله إلا من أجل المراوغة، وقرر عبد العال أن يكلمه لأنه يحس بنفسه مدفوعا بغريزة قوية، إنه فى حاجة إلى تأييد الكل كى ينفذ خطته الاجبارية، قال وقد عبر وجهه عن رجل مستعد لكل التضحيات الكبرى:

– دع الله فى شأنه وحدثنى كرجل أريد أن أكلمك عن شئ ربما تجهله، بيتنا أى هذا البيت، هل تعرف أنه معرض فى لحظة للإنهيار؟

كان الزبال على علم بمأساة البيت، ولكنه يتظاهر أمام الآخرين بالتجاهل أنه يراقب منذ وقت طويل مؤامرته المذعورة وكل يوم يقيس نظريا تطور التصدع المميت لقد أعد لنفسه خطة سلوكية لكن هذه خطة معدة من أجله فقط، خطة ليس له فيها شريك، أجاب:

– وماذا تريد أن أفعل؟ إذا فكرت أن تطلب منى النصيحة فعليك بالتقشف.

– لست فى حاجة لنصائحك يا زبال، أطلب منك ماذا ستفعل.

ظل عبد ربه صامتا لحظة، نظر إلى الجوذى خلسة، كأنه يحمل حقدا دفينا:

– إذا أردت أن تعرف فحسنا، لن أفعل شيئا لعلك تكون راضيا؟

تبادل الرجلان النظرات للحظة فعبد العال يعرف جيدا أن الزبال يخدعه راح يخمن أن لديه سرا غامضا مدفونا وسط أكوام الزبالة، هذا الرجل يكرهه بعمق ولكن فى أعماقه هناك شيئا يحاول أن يستأثر به، وأن يمتلك مشاعر الآخرين الأنانية ورغم كل شئ أراد أن يمتلكه مع الكل لأن تمرده سيثير رغبة الكل، رغبة الجميع الأكيدة وضرورة الاقناع الجماعى.

أحس بقوة ماتسرى فى عضلاته، إنها خطيرة وتملأه بالحماس قال:

– يا عبد ربه يا أبى لننسى مرة كل ما يفصلنا ليس هذا هو الوقت الذى علينا أن نختلف فيه، أعطنى يدك فنحن نغرق جميعا فى نفس المأساة، أتوسل اليك أن تخبرنى عما نويت أن تفعله.

قال الزبال:

– لم أنو شيئا لقد أبلغتك بذلك فلماذا تخدعنى؟

لفح عبد العال الزبال بنظرة أخيرة، ترى أى شئ يمكن أن يخفض فوران دمه؟

– إذن، أنت لا تنوى أن تعزل؟

قال الزبال: أعزل ولماذا أفعل؟ هل تنوى أنت أن تعزل؟

قال عبد العال: لقد قررت أن أبقى وطلبت منك أن تكون معنا.

– أكون معكم! ماذا يعنى هذا؟

– سأشرح لك، قررنا ألا ندفع الايجار لشى خليل إلا بعد أن يصلح المترل إنها الوسيلة المثلى، هل تريد أن تكون معنا؟

راح الزبال يفكر فى الحقيقة، لم يكن يفكر بل حاول أن يجد إجابة تمكنه من الانسحاب دون أن يقترف خطأ وأنهى بأن قال:

– أنا أعمل يا بنى، ليس لدى وقت للانشغال بهذه الحكايات، لست شابا كى ألعب معكم، دعنى أصعد يا بنى فامرأتى تنتظرنى، سلام عليكم.

وصعد السلم وهو يحمل زكيبته فوق كتفه وكأنه يحمل كل بشاعة العالم.

(12)

فى غرفة بيومى دار الاجتماع الذى يهدف إلى اطلاع فايز الصغير على السر الغامض لمهنة لاعب القرود.

انحنى فوق الأرض وقرع الطبلة، حرك الصغير فايز، حسب تعليمات أبيه، القرد ومن ناحية فإن بيومى أثار بعصاه حركات الحيوان بينما استعاد ابنه جأشه، وعندما أبدى هذا القليل من الحماس وظلت الماعز بعيدة للحظة تغابت وراحت تعض الملاءات الرثة التى هى كل أثاث الغرفة ومن وقت لآخر يوجهها بيومى بضربة قوية بعصاه لكنها تعود رغما إلى الملاءة، هذه الماعز المسكينة الضامرة لم تأكل شيئا منذ وقت طويل، راح بيومى يتفحصها هى والقرد بطريقة حيوانية.

وقبل أن يبدأ العرض حرص بيومى أن يغلق باب غرفته بعناية، إنه يخشى أن يدخل احد متسللا بغتة ويتكشف أسرار مهنته فهذه الاجتماعات الاحتفالية بالنسبة لبيومى ذات قيمة عظيمة وعليه أن يحضرها مهما حدث له، فى الحقيقة فإن لاعب القرود يؤمن أن فى مهنته بعض الاسرار الغامضة ولا يمكن توارثها إلا بين الآباء والآبناء، فهذا الرجل يحب الغموض ويسحره ما يمكن أن يجعله يؤمن بكيانه الغامض، لذا فهو يشعر بالسعادة وهو يتجول فى احياء المدينة.

استغرق العرض وقتا طويلا وبدا فايز الصغير فى الشعور بالملل فقد استبدت به فكرة أن أقرانه فى العطفة يلهون الآن، سمع أصواقم الزاعقة تدخل من فتحة المشربية الواسعة التى تسلل منها البرد، برد صقيعى يرجف الاعضاء من فتحة الحائط الآخر، لاحظ أطلال المترل المجاور المتجمدة واعطاه العرى الكئيب للغرفة شعورا بالوحدة المرعبة حيث توجد الحيوانات وحدها، توقف الصغير فايز عن قرع الطبلة برهة وهو يرهف أذنيه:

– لقد تعبت يا أبى.

ضربه بيومى بالعصا وأمره أن يكمل، كرر الطفل:

– أنا تعبان.

– استمر وإلا حملت أمك كفنك اليوم!

وأمام هذا التهديد الطاغى استعاد الصبى الطبلة واستكمل العرض، راح يغوص فى لامبالاة وأصبح حسب رغبته أقل مهارة، غمره بيومى بالشتائم، ثم ادخل الماعز فى اللعبة.

فى البداية بدت الماعز جامحة، فهى جوعانة ولم تكن فى حال تقبل الألعاب البهلوانية المطلوبة منها، وفجأة تمددت فوق الأرض ونامت ساخطة، راح بيومى يحثها ببعض ضربات قوية من عصاه ولكن القرد تدخل، أراد أن يدلفع عن رفيقته وعض بيومى فى يده فانتابته غضبة عاصفة، عنف بيومى حيواناته بينما راح الصغير يمزح وهو يدعك أذنه.

فجأة فتح الباب، وبدا رشوان قاسم رابطا ضماداته، بوجهه الحزين الشاحب فمنذ الحادث ومصلح مواقد الجاز قد أصابه النحول، وبينما هو يدخل هذا الكهف أحس بالبرد يوخزه فعقد ذراعيه كى يحمى صدره:

– ما هذه الأساليب؟ يا رجل، هل تريدون أن تقتلونى جميعا؟

كان مسكن رشوان يقع فى الطابق السفلى، لقد قلبت ضربات القرد طوال فترة العرض رأسه، وأخيرا، تولدت العاصفة عن سلوك الماعز الجامح، انتهى بالسخط، فصعد كى يوبخ بيومى.

أمسك هذا بحيواناته دون أن يرد على زائره وراح يحبسها فى مخبأها ثم عاد بهدوء، نظر إليه رشوان قاسم بعدوانية بينة وانتهز الصغير الفرصة كى يفلت بجلده، قال بيومى بطريقة غريبة اعتاد أن يتحدث بها إلى الناس:

– خذ وضع الجلوس.

هذا الأسلوب لم يعجب رشوان قاسم بالتأكيد، فرد غاضبا:

– كف عن أساليبك يا رجل، لم تكلمنى كحيوان هل أنا ماعز؟

علق بيومى: لست ماعزا أنت رجل لطيف، ثم أنك رجل مريض.

قال رشوان وهو يكظم غيظه:

– أنا عامل ميكانيكى، لم أنطق جملة واحدة منذ مدة طويلة.

قال بيومى: أعرف كل هذا، خذ وضع الجلوس.

تقدم رشوان قاسم نحو احدى الملاءات وجلس فوقها، انحنى لاعب القرود فى وجه مضيفه وقال:

– كيف حال صحتك؟ أتمنى أن يكون الجرح قد طاب.

لم يرد رشوان قاسم، نظر حوله، فمسكنه لا يختلف كثيرا عن هذا ومع ذلك فهو يحس أنه يختلف كثيرا وكأنه موجود فى قلب الصحراء، فضوء النهار الذى يدخل عبر فتحة المشربية يضخم مأساة الأشياء التى تسبح فى هذا الوضوح وكأنها كابوس تختلط فيه رائحة الحيوانات المتوحشة ببرد كثيف يجتاح الغرفة، أحس رشوان قاسم بالضياع فى وسط هذه القوة الهائلة التى لم يغتصبها أحد، صاح:

– كيف تعيش، يا رجل!

حدق بيومى فى ضيفه، وفكر بضع ثوان ثم سأل:

– ماذا تعنى بهذا؟ لا أفهم.

– أنت تفهم جيدا كيف يمكنك أن تعيش فى هذا المسكن أعرف جيدا إن مسكنى ليس أفضل منه ولكن مع ذلك..

أطلق لاعب القرود ضحكة صغيرة كشفت عن أسنانه المهتمة وقال:

– اتساءل: كيف لمسكين مثلك أن يندهش من شيء ما.

– لست مندهشا، يارجل! فقط أرى أنك تعيش كمتوحش.

قام بيومى ومشى ببطء عبر الغرفة، لقد حركت المعاناة التى خمنها لدى مضيفه فى نفسه قوى غامضة، بدا كأنه يقاطع وجوده، الحزن المخيف من هذا المسكن البشع حيث تضيع روح الأنسان فى مجهول، رآه رشوان قاسم يروح ويجيء أمامه، أشبه بالوجوه البعيدة المولودة فى خمول الاحلام، واقع غير ملموس يفصله عن هذا الرجل الذى تبدو فى كل حركة منه تفاؤل واضح، وأخيرا توقف لاعب القرود وقال:

– أحب هذا المسكن وسوف أحس بالأسف لو فقدته، نعم.

– تقول هذا كى تبين لى أنك شجاع، قلت لك كف عن أساليبك، وتكلم بشكل جاد.

قال بيومى: أنا جاد للغاية، أحب هذا المسكن مهما كان ولن أرحل حتى لو انهار البيت سوف استمر فى المعيشة فى اطلاله..

– لكنك ستموت ياغبى!

– أتكلم فى حالة لو لم أمت.

وأثناء هذا الحديث، اكسب لاعب القرود كلماته القوى، ومضت عيناه وكأنه يلقى أشعة قوية مغناطيسية، إنه واثق أن ضيفه يخفى شيئا ما فى كلماته ويشربها مثل السم ومن جديد انحنى أمامه: – أخبرنى، ألا تخف من الحياة فى هذا المترل؟

قال رشوان قاسم: وماذا بعد، حتى لو كنت خائفا، فماذا سيغير هذا الموقف؟

– ربما يمكنك أن ترحل.

– أرحل آه لا! كيف أرحل فى حالتى هذه، أين يمكن أن أحتمى؟

– اذهب إلى الشوارع، فالشوارع مصنوعة لكل الناس، ولا أحد يطلب منك إيجار.

قال رشوان قاسم بازدراء:

– أسرح فى الشوارع إنه أفضل لك، يا لاعب القرود، لكن أنا عامل ميكانيكى ولا أستطيع أن أنام فى الشارع.

قال بيومى: لا تغضب إنها مجرد نصيحة أسديها لك ولا يهمك! ابق معنا، فأنت رجل ذكى وأنت تعجبنى، وعبد العال أيضا رجل ذكى.

– من أخبرك بذلك؟

– أعرف كيف أقدر قيمة الانسان وحدى.

أخفض رشوان قاسم رأسه وعض شفتيه، وارتفعت ألام جراحه شديدة الحدة، وكأنها متعفنة مع ايقاع دمه اليائس، انتابه حزن موحش وسأل بيومى:

– هل كلمك عبد العال؟

– عن مشروعه؟

– نعم، لقد جاء عندى يوما وكلمنى، وقال لى أنكم اتفقتم جميعا، حقا؟

– فيما يتعلق بى، فإننى أجد المشروع رائعا وأتساءل من أين تجىء مثل هذه الأفكار لهذا الرجل.

– لعله يقرأ كتبا، ماذا تعرف عنه؟

– لا.. لا أعتقد من ناحيتى، فهذه الأشياء ليست مكتوبة فى أى كتاب.

سأل رشوان قاسم وقد بدا متصلبا أكثر من اللازم: إذن من أين تجيئه؟

رد بيومى وكأنه ملهم: إنه يقرأ فى قلب البشر.

قال رشوان قاسم:

– هل تريدني أن انخدع من جديد، بكلماتك الغريبة، ولكنك لن تملكني وقتا طويلا سوف أتركك، السلام عليكم.

وقام لاعب القرود أيضا بينما راح الأطفال ينشدون أغنية قبيحة فى العطفة.

وفيما بعد، عند المساء راح طفل يصرخ فى الحوش أن سى خليل قادم ناحية المترل، أحس الأطفال أن عليهم مهمة التعرف على سى خليل من بعيد ثم يجيئون ليخبروا السكان كى يمكنهم أن يتحصنوا فى بيوقم واستعدوا لمقابلته بصمت شديد وعند صياح الأطفال أغلقت كل الأبواب فى وقت واحد، وراح المترل الصامت ينتظر مالكه.

جر سى خليل دراجته فى يده، وهو يطىء العطفة وكأنه أحد الغزاة، لم يشك فى شىء فهو يعيش فى قصص جرائمية مماثلة ويعرف جيدا أن ليس لديه شىء يخشاه من ناس هذا البؤس تجعله كلمات عبد العال يفكر أحيانا بالتأكيد، فهذا الرجل يعرف أشياء، أشياء يجهلها الجميع، من هو إذن هذا الجرثومة الذى يدفع الروح فى الفقراء والجياع؟ إلى أين يذهب بالناس؟ كرر سى خليل أن عبد العال يمثل حالة استثنائية، لكن هذا الاستثناء يبدو وكأنه سيصبح خطرا بمرور الزمن، يجب أن يعقد اتفاقا الآن مع هذا الرجل، فربما يمكنه أن يمنحه بضعة قروش.

جاء لمقابلته مرات عديدة ولكنه يخشى دوما أن يستقبله بشكل سيىء. وأن يصده، بلا شك فهذا الرجل يعد انقاضه. إنها كثيرة، فكر

سى خليل أن يبلغ الشرطة ولكن على أى أساس يكون الاتهام؟ فهذه الكلمات ليس لها معنى سوى لصاحب بيت، فالشرطة لن تفهم شيئا.

وهو ينفث من الغضب توقف سى خليل أمام الباب الخشبى، كان هناك بعض الأطفال يلعبون فى العطفة، رمقهم سى خليل بنظرة متشككة فهو يتوقع أى شىء منهم، ولكن مظهرهم العجيب يبعث فيه الهدوء، راح يقرع جرس دراجته ثم نادى بعض السكان بالاسم.

لم يجبئه أى رد، صاح وقد نفد صبره:

– ياسكان ياغجر ردوا علىّ...

أبدا ليس هناك رد، نظر سى خليل حوله، واستكمل الاطفال لعبهم الظاهرى وخلال بضع لحظات سوف يحل الليل.

دخل سى خليل الحوش متسللا، هناك كان الجو أكثر إظلاما من العطفة وضع دراجته بجوار الحائط ومشى بضع خطوات مترددا، ثم توقف، ونادى من جديد بكل قوته، ورنا صمت غامض حوله أخذ يخنقه فلا أحد يرد، لقد وقع المنزل فى صمت كأنه الموت، سعل سى خليل فسمع صدى صوته وحده، بدا له أنه صوت رجل آخر، رجل آخر ميت ومدفون منذ وقت طويل.

عزم سى خليل أن يدخل البيت وأن يغتصب هذا الصمت المهين، إنها لمجازفة خطيرة ولكن سى خليل مطارد من شيطان داخله، اقترب من الباب يملأه الحذر ووضع قدمه فوق درجة السلم الأولى وانتظر فلم

يسمع أى صوت، صعد بضع خطوات أخرى ثم توقف، استحوذت عليه رائحة نفاذة قوية، عطس واستند على الدرابزين، اهتز الدرابزين أحس بنفسه ضائعا فى الظلام، لم يبق منه شيء، استكمل سى خليل الصعود، لهث، انتفض صدره كأنه فى سباق طويل، استند على الحائط المندى، مرت حشرة على عنقه بحركة سريعة.

استرد سى خليل أنفاسه، اصبح مجنونا بفعل الصمت، ينبعث الذهول من هذا المترل، استبدت رعشة بذراعيه وكتفه، تقدم الأوباش نحوه فى الظلام إن لديه مستأجرين غريبى الأطوار، فالمترل سينهار عليهم أحس أنه مقوقع وسط الانقاض، وأن الحجارة ستقتله، لم يسع أن يتخلص منها، غاصت رأسه فى مادة جلاتينية ورخوة، إنها بطن امرأة ثرثارة عجوز تفككت أمعاؤها وبدا له وجهها، تحسس سى خليل وجهه انفجر ضاحكا من المرأة إنها لم تمت، جمعت أمعائها ووضعتها فى فمه بصق سى خليل لفظ مذاقها ورغب فى التقيؤ، اهتز بكل جسده وغرق فى ماء دافىء أراد أن يترل وأن يهرب من هذا الكابوس العبثى، وفى حميته حلم بلحظات راحة رقيقة، تراجعت روحه بالقهقرى رأى نفسه بالخارج، جالسا فوق شرفة مقهى. بصحبة شبابه الأول، ترى من يأخذه الآن إلى الخارج؟

لقد نضب وجف، لكنه يصمد دائما، تصرف كأنه فى اشتباك.. اطمأن على نقوده، يجب أن يعطيه نقودا، إنه المالك الماكر، هو الجلاد

الذى لا يعرف الرحمة. لقد جاء كى يخنق الشعب لكن الشعب يمسكه بين يديه المتورمتين. إنه هو الذى يخنقه.

أخيرا، توقف أمام باب عبد العال، طرق بقبضته على الباب وصاح كأن مسا أصابه:

– يا عبد العال يا أخى رد علىّ، أريد أن أكلمك عن أمر هام.

حط عليه الصمت فحطمه، انغلق الجو كأنه يقاطعه وتلاشى الظلام حوله، لم يميز بسهولة سوى أطراف الجدران، وغامر بالدخول فى الممر الذى يؤدى إلى مسكن بيومى تحسست يده الظلام، وانغمست فى نسيج عنكبوت، انزلقت قدمه فوق حطام بدا له أن المترل يتحرك من تحته توقف لحظة كى يتنفس، طارده الصمت كالاخطبوط إنه فى اسفل دهليز مزخوم بالركام يخنقه هدوء هذه الحجارة المأساوية التى تغوص فى أعماق الوجود، لكنه يعانى من انتفاخ معدته، انسحب بطريقة مثيرة للرثاء إنهم يريدون سرقة أمواله ومع ذلك فهو صاحب البيت صاح: أنا صاحب البيت... أنا صاحب البيت.

أخرج منديله من جيب سترته ومسح عرق جبينه وفى طرف الممر وطأ درجات سلم صغير، استدار يسارا ووجد نفسه أمام باب لاعب القرود، طرق الباب ونادى الصمت عليه، غاص سى خليل فى التوتر وألقى على الأرض نظرة مرتجفة، وفجأة رأى شيئا طويلا يتحرك ويترلق تحت الباب، راح يدور حول قدمه إنه ثعبان بيومى، أراد سى خليل أن

يهرب، أراد أن يصرخ، لم يجرؤ أن يفتح فمه فقد ضاعت صرخته فى أعماق نفسه الملعونة.

(13)

ذات صباح وبينما كل الأطفال يلعبون، سد شبح عسكرى الشرطة العملاق باب العطفة إنه عسكرى بشرائط ذو شارب ضخم ويبدو أنه يعرف القراءة ومن الواضح أن هذه الميزة الأخيرة لا تفيده إلا فى جعله غاضبا لأنه، وهو واقف أمام الناحية التى يسدها، كان يبحث عن اسم العطفة بالتأكيد التفت نظرته بحروف مطموسة مكتوبة بلون أحمر تبين أن العطفة للبيع، لم يكن هذا العسكرى مستعدا لتقبل المزاح وكأنه يبحث عن شخص يقتله لتوه ولما لم يجد أحدا راح يهاجم الأطفال أمرهم أن يكفوا عن اللعب وأن يردوا على اسئلته ولكن الأطفال أجابوه بمزاح ثم تناثروا ووقفوا على مسافة من العسكرى لم يعرف ماذا بفعل، فهم يتحركون بطول العطفة ويقفون فى كل مكان، راح يدقق فى الأماكن، ودخل الحوش تلو الحوش وبدا كأنه يتنزه على مهله، إلى أن خرج رجل أعور ووقف عند عتبة الباب. اقترب العسكرى منه وسأله، لقد احتفظ الأعور لنفسه، منذ أن اختفت زوجته دون أن تترك وراءها أثرا بوجه أشبه بوجه قاتل بشكل مبالغ فيه، المرء يرتاب فى أمره انه وغد، لم يسمع أحد الحوار الذى دار بينه وبين العسكرى، فبعد قليل، شوهد العسكرى يتوجه نحو منزل سى خليل وقد بدا عليه التعجل.

فى تلك اللحظة لم يكن أحد فى الحوش صاح العسكرى بصوته الأجش:

– يا ناس، أين أنتم يا ناس؟

أسرع السكان، حين سمعوا هذا الصوت المخيف قلقين إلى نوافذهم، تطلعوا إلى الحوش وشاهدوا العسكرى واقفا يفتل شاربه بتعاظم، ماذا يريد منهم الرجل أيضا؟ تصوروا فى بادىء الأمر أن العسكرى مرسل من طرف سى خليل كى يجبرهم على دفع الإيجار، ودون أن يحدثوا ضجة تجمعوا حول السلم متكاتفين، اتفق الرجال أن يلتزموا الهدوء، وأن يواجهوا ممثل السلطة بنفس الصمت العميق الذى هز سى خليل. لكن النساء أردن بأى ثمن أن تتشاجرن مع العسكرى البدين، ووكلن عنهن زوجة بيومى لمقابلته.

استعد العسكرى لصعود السلم وعند رؤية زكية اتخذ هيئته الرسمية وهتف قائلا:

– أنت يا امرأة! هل أنت وحدك هنا؟

وضعت زوجة بيومى قبضتها فوق مؤخرتها وأجابت:

– أيوه، وحدى ماذا تريد أيها البائس!

– كونى مؤدبة وإلا حبستك.

– أنت تحبسنى، يا الله، هل سمعتم يا ناس، هل سرقت منك شيئا؟

قال العسكرى: كفاك غباءات، ردى علىّ بسرعة، هل أنت التى أرسلت رسالة إلى حكمدار الشرطة بشأن بيت آيل للسقوط؟

عند هذه الكلمات، استدارت زكية نحو السلم ورفعت رأسها وصاحت للسكان أن يترلوا، تقدمت الواحدة وراء الأخرى نحو الحوش، بحذر أخرج العسكرى وريقة من ملف كان يضمه تحت ذراعه ومدها إلى سليمان العبيط الذى ارتبك وهو يتظاهر بالقراءة.

راح الجميع ينظرون وبعد قليل أعادها إلى العسكرى وهو يقول:

– لا أعرف القراءة، ماهذا؟

استاء العسكرى من هذا الحشد من الأميين، ثم شرح بلهجة مليئة بالإزدراء:

– هذه مذكرة، يجب أن تمتثلوا غدا فى مكتب شرطة المنشية، مفهوم؟

سأل عبد العال: لماذا نفعل يا عسكرى؟

– أولا ما هى مهنتك؟

– أنا عربجى.

– حقا؟

قال عبد العال: هذه عربتى.

نظر العسكرى إلى العربة ثم قال:

– هل أنت الذى أرسلت الخطاب؟

– نعم أنا.

– إذن فأنت تعرف الكتابة.

قال عبد العال: لا.. لا أعرف الكتابة.

– هل ستجنني يا رجل! كيف لا تعرف الكتابة، هل كتبت الخطاب؟

– إنها حكاية طويلة.

– آه.. نعم ليس لديّ وقت لأسمعك، لقد أبلغتكم أنه يجب أن تمتثلوا صباح غد فى قسم الشرطة، أخبرونى ماذا فى منزلكم؟

قالت مبروكة: كيف! ألا ترى؟

قال العسكرى: لا.. لا أرى شيئا.

قال سليمان العبيط: إذن فأنت لا تنظر جيدا.

قال عبد العال: بكل بساطة سوف ينهار.

ردد العسكرى بقلق: متى؟

رد عبد العال: ربما الآن.

أصاب العسكرى شحوب، فتل شاربه بيد مرتعشة وقال:

– سوف أذهب، ليرعاك الله.

وخرج من الحوش وهو يتمتم ببعض الأدعية.

راح السكان يعلقون على هذه الكارثة الجديدة، فماذا يريد منهم مأمور القسم، هل سوف تهتم الحكومة بالأمر؟ ليس هذا مؤكدا. أعتقد السكان أن أحمد صفا الملعون قد سرب فى رسالته بعض الكلمات الجارحة للحكومة وكان هذا سببا لفتح محضر، ترى ماذا فعل أحمد صفا كى تتصرف الحكومة هكذا؟ طرح السؤال عليهم.

لم ينس رشوان قاسم الاهانة التى وجهت لشخصه، قاطع أحمد صفا بسخرية، وحمله مسئولية كل شىء فقال:

– أعرف تماما أن ابن العاهرة هذا لا يعرف الكتابة، لقد سخر منا وها نحن غارقون بسببه فى ورطة قذرة.

قال عبد العال: لو لم يكن يعرف الكتابة فليس عليه أن يخشى شيئا ولكن ما يخيفنا هو أن يعرف القراءة، لعله قد كتب شتائم للحكومة.

قال رشوان قاسم: هذا هو ما جنيناه من حشاش.

حاول بيومى أن يزعج النفوس باقتراحاته العجيبة فقال:

– أتساءل عما يمكن أن يكتب حشاش، كل شىء ممكن.

سأله عبد العال: ماذا تعنى؟

– أقول أن ابن العاهرة قد أهان الحكومة بحكايات بذيئة، هذا يمكن أن يكلفنا حياتنا.

قال رشوان قاسم: أشرح لنا ما هى هذه الحكايات؟

– حسنا أعتقد أنه حكى عن شقاوة قردى.

صاحت نفيسة: ألا تستحى يا رجل!

سأل عبد العال: ما هى هذه الحكاية؟

أكمل بيومى: إنها حكاية سمعتها من الأطفال، أنتم تعرفون أن هذا الحشاش الملعون قد سرق قردى منى يوما ومثلما شككت قليلا، فقد طلبت من الأطفال أن يذهبوا إلى بيته ولم يستطع الأطفال أن يدخلوا عند أحمد صفا طيلة أسبوع وفيما بعد طلبوا منه معرفة لماذا أختفى فأجابهم أنه عاشق وان عشيقته الحالية تشغل كل وقته، ما رأيكم؟

راح الجميع يسخرون وأحس بيومى بالاحباط فقد أراد أن يؤثر فى السكان، فأضاف بنبرة مؤثرة:

– ليست هذه قصة غريبة، إنها قصة حقيقية ويمكن أن تكلفنا حياتنا.

وراحوا يناقشون الأمر مجتمعين فى الحوش حتى حل المساء، لم يرغبوا فى النوم ولا فى أن يقوموا بأدنى حركة، أحسوا بأنفسهم حبيسى مصيرهم وأنهم معزلون عن باقى العالم فالمنزل يمكن أن ينهار، وهم مستعدون للتضحية الكبرى، فلم يتحركوا، إذا انتهى كل شئ بالسقوط وعدم الموت.

(14)

تناقش الرجال وهم يزعقون وقالوا أشياء كثيرة ولكن شحاته لم يقل شيئا وكأن المأساة لم تمر عليه فهذا الألم فى أعماق بطنه قد تسلط عليه يعيش بداخله كوحش وكأنه يود التخلص منه، وبعد لحظات أراد أن يفتح بطنه وأن يترع من داخلها كل هذا الحريق المؤلم وأن يلقيه بعيدا عنه، إنها فكرة عبثية تثير الجنون فهو لا يستطيع أن يفتح بطنه، إستمر فى توسله فى صمت.

حل الليل مع مايخفيه من كوابيس طويلة، عاد شحاته إلى غرفته كانت الغرفة غارقة فى ظلام تظهر منه أشكال مألوفة: زوجته وأبناؤه، هنا جلس شحاته فوق مقعد وراح يفكر.

فجأة دوى صوت وسط الليل:

– أعطنى صدرك.

خفق قلب شحاته، إنه صوت إبنه الصغير يقول لأمه:

– أعطنى صدرك.

ردت الأم: لا عليك.

كرر الطفل: – أعطنى صدرك.

لم ترد الأم، حاولت أن تهدئ الطفل فراحت تربت عليه، أرادت أن تجعله ينام لكن الطفل كان يفوح فى هدوء، فالجوع قد أوقظه والحمى أيضا ارتعد جسمه الصغير بين ذراعى أمه، ملأ الظلام ببكائه الشاكى نطق بكلمات غير مفهومة لم يفهم ماذا يريد أن يقول، امتزج صوته برقة مفرطة، الأطفال الآخرون نيام وهو وحده الذى يبدو كأنه بعث فى هذه الليلة التى تتضور جوعا.

سمع شحاته أنين طفله، أحس بنفسه يتزلق فى عمق الهاوية، اختنق ألمه، لم يحس بجوعه، جرته متاعبه المجدولة إلى آخر العالم.

وعاد صوت الطفل يدوى فى الظلام:

– أنا جوعان، أعطنى صدرك لآكل.

اهتز شحاته على مقعده، فهذيان الطفل يثيره كأنه السحر، راحت أفكاره إلى جيران غرباء، بدا له أن زواحف ضخمة قد ولدت من الظلام تتقدم نحوه بأفواه مليئة بالتهديد، كيف يدافع عن نفسه! صوت هذا الطفل يمزق حاجة العالم ويكشف كل بشاعة الدنيا العفنة، رأى شحاته أرضا مجدبة تشع فيها هياكل عظمية متناثرة.

– أعطنى صدرك لآكل.

ظلت الأم هادئة لعلها نائمة يكاد يسمع أنفاسها، هزها الطفل، امتص صدرها عبر قماش ردائها:

– أعطنى صدرك لآكل.

كشفت الأم بحركة محمومة، والظلام يشتد، عن صدرها، أسرع الطفل وراح يعضه بقوة، أغلقت الأم عينيها من الألم، لم تتحرك ولم تصرخ، تركت الطفل يقتات من جلدها وهنا قام شحاته وخرج مرة أخرى إلى الحوش.

كان القمر يشع فى جزء من السماء. فوق المدينة حيث ينبت الناس. تألق القمر بكل ضيائه لقد قتل وحوش الحوش وقيل أن كل معاناة الناس قد ذابت فى الضوء جلس شحاته لحظة فوق العتبة الحجرية، إنه فى حاجة للراحة قليلا، لم تعتد عيناه هذا الضياء، استرجع فى داخله صورة طفله وهو يعض صدر أمه، هذه الصورة هى الحقيقة المؤلمة لمصيره انها تجعل حدود مصيره تتراجع فليس هناك لديه شىء بعد ذلك.

أخافته فكرة الأمر الذى سيرتكبه لقد توصل إلى قراره منذ وقت طويل يعرف إنه يحتاج إلى الكثير من الطاقة، أحس بنفسه ضعيفا، أى قوة تنقصه كى يقتل ماعزا، من السهل قتل إنسان، سوف تقاوم، توقع شحاتة كل شىء.. إنها جريمة حقيقية سوف يرتكبها.

قام شحاته وصعد السلم واستولت عليه أفكار مرعبة بدا أن حياته مرهونة بهذه الدقيقة سوف يأكل أخيرا، سوف يشغل الفراغ فى داخله، هز جسمه وغلت الدماء من جديد فى شرايينه ولأول مرة منذ سنوات طويلة أحس شحاته أنه حى.

وفى هذه الليلة سرق شحاته النجار ماعز بيومى المدربة من أجل أن يسد جوعه.

(15)

في صباح اليوم التالى استيقظ السكان على ضجة صوت يدوى فى الفناء نظر عبد العال عبر المشربية ورأى بيومى وقد بدا فظا يلقى بالشتائم لأشخاص غير موجودين، وعلى مسافة بعيدة تقف زكية قريبة من الباب الداخلى وهى تولول وقد أسندت يدها على خدها، بدا أن الاثنين قد مُنيا بخسارة كبيرة، أما القرد فراح يقفز وسط هذا الصراخ البائس.. صاح عبد العال:

– ماذا دهاكم ياناس؟

رفع بيومى رأسه وبدا عليه الانزعاج وراح يستمر فى لعن القدر وهو يوجه كلامه لأشباح، لم يفهم شيئا من لعناته لكن المرأة ردت:

– نحن لا نجد الماعز ألم ترها؟ يا له من يوم أسود!

– لقد استيقظت لتوى يا امرأة ولم أر ماعزا، فتشوا جيدا ترى أين يمكن أن تذهب؟

قالت زكية: بحثنا فى كل مكان، ولم نجدها فى أى مكان، إنها مصيبة كبرى.

وأسكت بيومى زوجته بإشارة حاسمة:

– كفى ثرثرة أعرف أنها سرقت وعليك أن تسكتى.

اعتقد السكان أن كارثة قد حلت فتجمعوا فى الحوش وحاولوا فهم الموقف لكن بيومى الذى زادت ثائرته لم يرد على تساؤلاتهم سوى بتهديدات غير محددة اقترب منه عبد العال فى النهاية وقال:

– ماذا يا رجل ما هى الحكاية بالضبط؟

نظر إليه لاعب القرود على طريقته ورد وكأنه كاهن الكهان:

– إنها حكاية ستنتهى بموت رجل.

قال عبد العال: كف عن هذه اللغة، واحك لى الموضوع من البداية.

قالت المرأة: أنا أول من اكتشف الأمر ذهبت لتقديم الطعام للحيوانات فى مربعهم، فلم أجد الماعز هناك فذهبت لأوقظ الرجل، بحثنا عنها معا فى كل مكان ولم نجدها، يالها من مصيبة كبرى!

– ربما أنها ذهبت إلى العطفة هل بحثتم فى العطفة؟

قال بيومى: لا فائدة فأنا أعرف أين ذهبت.

قال رشوان قاسم: إذن فطالما أنك تعرف أين هى.. أى متعة انتابتك يا رجل كى تفزعنا هكذا فى الصباح؟

قال بيومى: لم أفزع أحدا، من دعاك للحضور، إنها ماعزى وأعرف ما يجب أن أفعل.

قال رشوان قاسم: أفعل ما يحلو لك ودعنا فى حالنا.

ظل اختفاء الماعز لغزا للجميع فقد عاد بيومى بعد أن فتش عنها فى غرفة أحمد صفا خافقا وتوعد سائق الترام السابق بالانتقام الأكيد، ورغم هذا لم يعثر أحد على الماعز ولم يخمن أحد الحقيقة إلا سوكة المغنى الذى وجد نفسه يوما وحيدا فى صحبة شحاته ورأى هذا الأخير يسلك أسنانه بقطعة خشب، هذا الشىء الغريب أثار ريبة سوكة، ولكن سرعان ما تخلى عن أفكاره.

اشتدت المعاناة بين السكان وتملكت عليهم أيامهم وعاشت بينهم تتغذى من دمائهم أحس بها السكان فى أقل بادرة من حياتهم، لم يتوصلوا إلى أى حل داخل أطلال هذا المنزل الذى انغلق عليهم كأنه المصيدة فعاشوا فى حالة من الترقب واشتدت أعصابهم حتى أطرافها واقتربوا من الموت شيئا فشيئا وافتحت الهوة تحت أقدامهم، لم يتمكنوا من التقدم ولم يمكنهم أن ينظروا إلى الشرخ المشئوم ففى الليل كانوا يسمعون البيت يقرقع ويطقطق من الألم وكأنه امرأة تتأوه.

فى هذا الترقب المرعب، عُرف يوما أن عبد ربه الزبال، قد هجر البيت هرب، عند الفجر دون أن يقول شيئا، جاءت عربة لتأخذ أسماله،

وازاء هذا الموقف تصرف سوكة كالمجنون صعد إلى غرفة الزبال الخاوية ثم أنحنى فوق الأرض، وراح يغنى أغنية حب مليئة بالشجن المحموم.

إذن فقد اختفى الزبال على طريقته وأفلت بجلده، هذا الرجل النذل اللئيم ترك هروبه السكان فى ذهول، ظلوا مصدومين لا يصدقون، بدا لهم أن المنزل لن يقاوم كثيرا بعد هذا الخواء وأن وجوده كان غير موجود، وبدءا من هذه اللحظة بدا المنزل كأنه يذوب، كأنه دوامة شيء داخلى راح يحركه بدون توقف ومر الوقت ثقيلا محملا بالتهديدات الشديدة التى لا يمكن أن يتجاهلوها، عاش السكان جميعا فى دائرة الموت، أصبح بيومى منذ اختفاء ماعزه غريبا تماما وسكب فى لهجته الغريبة كل الكوارث العالمية، أما سوكة فقد انسحب إلى دائرة الظل ولزم الصمت تماما واستكمل دندنته، فى كل يوم يشدو أغنيته الولهانة فى غرفة الزبال الخالية.

وفوق كل هذا خيم صمت سى خليل، هذا المالك الرذل، لم يعد ليرى بيته ولم يسمع أحد يتكلم عنه، أحس عبد العال باليأس من اقناعه عندما قابله ذات مساء فى الميدان.

كان عبد العال جالسا على حافة الرصيف، راح يعرض نفس الأفكار اللزجة التى يحملها فى راحته كأحجار ثقيلة لقد دفعته الثورة إلى قمة الثورة أحس بأن كل أعضائه تنخلع وتموت، احتفظ فى فمه بمرارة الفشل حول الميدان الواسع، انه خال تقريبا يشع تحت ضياء المصابيح، وفى مقهى بعيد تنبعث أغنية حزينة من جهاز راديو راح يردد نفس

الكلمات الطويلة الجياشة المشاعر، انتهت بأن نزعت قلب الرجال الذين يشعرون بالشجن وهم يسمعونها.

– أبحث عنك يا رجل!

رفع عبد العال رأسه، رأى سى خليل يمسك دراجته بيده، بدا كأنه يخرج من حلم منسى فى فضاء الميدان الكبير، بدا صوته مخيفا:

– لماذا تبحث عنى؟

– أريد أن أكلمك عن بضعة أشياء.

قال عبد العال: وأنا أسمعك.

ظل سى خليل يبحث طويلا عن الحوذى كى يتناقش، خاصة عن مغامرته الأخيرة، فهذا الرجل يبدو كأنه يحتفظ بأسرار قادرة على حل مشاكل العالم، ويحمل فى يديه قوة الابطال الخارقين، لم يعرف سى خليل النوم وفقد طعم الدنيا ومر شىء غير مسموع لم تستطع الشرطة ولا الناس إيقافه، علام ينادى؟ إنها المرة الأولى التى يناضل سى خليل بقوة خارقة هكذا، رأى كب أجزائه تنتفض تزعزعت ثقته بنفسه وأصابه مرض لا يعرف اسمه، هذا الرجل وحده يمكنه أن ينزع الشك الذى يدمر روحه.

– أريد أن أخبرك أن ما فعلتموه لم يكن طيبا يا أخ عبد العال.

– ماذا فعلنا؟

– أنت تعرف عم أتكلم، أنت رجل ذكى.

– منذ متى فهمت ذلك؟

– منذ وقت طويل، فهمت أنك لست رجلا مثل الآخرين، ولهذا أرغب أن أتفاهم معك.

قال عبد العال: لن أتفاهم قط معك فليس لدىّ شىء مشترك معك، دعنى فى حالى.

– بشرفى فإن لدينا ما نتفاهم عليه، ويجب أن تفعل يا أخ عبد العال، ماذا يمنعك أن تتفاهم معى؟

ساد الميدان الواسع صمت ولم تسكت الأغنية الحزينة القادمة من بعيد، هناك صوت وقع أقدام عابرة تبتعد وهى تقرقع فوق الاسفلت، ألقت مجموعة المساجد العالية ظلها الغريب نحو الصحراء، تنبه عبد العال إلى أمر مليئ بالثراء يتعلق بمصيره لقد أثابه هذا الفضاء إلى رشده إنه يفهم الآن قوة اتحادهم، هذه القوة أثارت روح صاحب البيت، لقد أسفر تماسكهم عن نتائجه ولم يكن مخدوعا يعرف أنهم سينتصرون معا لقد أحنى الوحش رأسه، ولم يبق أمامه سوى أن يشطره إلى نصفين:

– ألم تفهم أننى لست وحيدا، فلست أنا الذى أخافك ولكن كل هؤلاء الناس الذين يؤمنون بكلماتى انهم يقفون خلفى، ألا تراهم؟

– لقد شرد الأسى يا رجل أجلس ففوق دروب الحياة يكثر البائسون.

قال عبد العال: وفوق درب الحياة يحدث الانتقام أحيانا.

– أى انتقام؟

– لشعب مطحون يستيقظ ولا يوقفه شيء.

– أنت تخرف يا رجل؟ ما هذه الكلمات أى معنى هى، حدثنى؟

– ربما ستعرف ذلك يوما.

– قال سى خليل: لعلك ستموت قبل ذلك.

قال عبد العال: ربما أن المترل سينهار، علينا ولكننا كثيرون، لن يموت كل الناس، فسوف يعيش الشعب وسينتقم من الآخرين.

سمع سى خليل هذا الصوت الذى ينطلق فى الليل، إنه صوت الشعب الذى يستيقظ وسوف يخنقه قريبا، وفى كل دقيقة تمر تفصله عن حياته السابقة، فالمستقبل مليئ بالهتافات، المستقبل هو الثورة، كيف توقف هذا النهر المتدفق والذى سوف يغرق المدن، تخيل سى خليل المترل يتحول إلى أتربه وركام ورأى الأحياء يظهرون بين الموت، لا إنهم ليسوا موتى فيجب أن يأخذهم فى الاعتبار. عندما يهبون من رقادهم بوجوههم الدامية وعيونهم المنتفخة.